10 me Année No. 446

Lundi - 19 - 1 1942

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة العاشرة « القاهرة فى يوم الإثنين ٢ محرم سنة ١٣٦١ — الموافق ١٩ يناير سنة ١٩٤٢ » العـــدد ٤٤٦

الفهــــــرس

مشكلة الرغيف...

وكيف لا يكون للرغيف مشكلة، والمشكلات منذ هبط الإنسان الأرض إنما تتناسل من أب واحد هو الرغيف، ومن أم واحدة هى المرأة؟

سمِّ الرغيف وسيلة حفظ الحياة، وسم المرأة وسيلة حفظ النوع؛ ثم حاول أن تنسب بشيء من التحليل الدقيق جميع ما سجل التاريخ من خصومات ومشكلات وأزمات وثورات إلى هاتين الوسيلتين، أو هاتين الغريزتين، فلن تجد فى نسبة البنات إلى أبويهن غموضاً ولا مشقة

كانت المرأة فى بدء الخليقة هى حواء، وكان الرغيف فى حياة الجنة هو الشجرة، وكانت الأثرة والطمع والحسد هى إبليس، وكانت الضحية لهؤلاء جميعاً هى سعادة آدم!

ثم مضى الرغيف والمرأة وإبليس يعملون فى دنيا الأرض ما يشاء القدر: يصلحون هذا ويفسدون ذاك، ويعمرون هنا ويخربون هناك، ويخلقون التنافس لتنشط عناصر الحياة، ويوجدون الخلاف لتتفق عوامل الموت، وينزعون الملك من يد إلى يد، وينقلون الحكم من دولة إلى دولة، حتى قال ابن أبى الحديد بحق: «لم تسل السيوف إلا لوجه أصبح من وجه، ولقمة أسوغ من لقمة»

ولو كان الملائكة يأكلون الرغيف ويخالطون المرأة لكانوا أناساً كالناس ، ولكان الملكوت الأعلى كالملكوت الأدنى ، ولكن الله لم يشأ أن يجعل النور كالظلام ، ولا أن تكون السماء كالأرض !

على أن الرغيف لاكتنان سر الحياة فيه كان أشد الثلاثة إيقاداً للخصومة !

كان مالك بن أنس يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير فيقول : « والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر »

وأنت إذا ذكرت في تاريخنا العدنانية والقحطانية ، والقيسية واليمانية ، والمهاجرين والأنصار ، والهاشمية والأموية ، والعباسية والعلوية ، والعروبة والشعوبية ، والتركية والفارسية ، والهلالية والصليبية ، والإسلامية والقبطية ، والسعدية والعدلية ، والفلانية والعلاّنية ، لما قلت إلا ما قال أنس بن مالك

كذلك إذا ذكرت في تاريخ الناس الشرقية والغربية ، والديمقراطية والدكتاتورية ، والرأسمالية والشيوعية ، لما وجدت لهذه الأسماء معنى ولا مغزى إلا ما قاله كثير بن شهاب لغلامه وقد طلب منه الطعام يوماً فقال ما عندي إلا خبز وبقل : « ويحك ! وهل اقتتلت فارس والروم إلا على الخبز والبقل ؟ »

* * *

لذلك كله عالج الدين مشكلة الرغيف بتنظيم المعاملات ، وفرض الصدقات ، وكفكفة النفوس الشرهة بالقناعة والعفة والحدود ؛ واتقت الدول جرائر الرغيف بالعلم والنظام والإصلاح والاستعمار ؛ فإذا غلب الكفر أو طغت الأثرة ؛ شبت الثورة أو نشبت الحرب . ذلك أن الفرد أو الشعب يصاب في حريته فيصبر ، ويؤذى في كرامته فيستكين ، ويفتن عن عقيدته فيرضى ؛ ولكنه إذا حرم الرغيف انقلب ضارياً كالوحش ، أو جارفاً كالبركان ، لا يذر من شيء أتى عليه إلا جعله كالرميم

* * *

هذه مصر هبة النيل وجنة الشرق وملتقى البحرين والبرين طالما عركتها الخطوب فاستكانت للقدر ، واستعانت بالصبر ، ومضت على حسن ظنها بالله تتربص الدوائر بالمغير ، وترجو الغوائل للظالم ، حتى إذا أخذت هذه الحرب الأكول تنازعها الرغيف ، أصبحت كلها لساناً واحداً يتضاغى مخافة انقطاعه ، فلا تجد في الأمة ولا في الحكومة إلا سائلاً عنه ، أو شاكياً منه ، أو باحثاً فيه ، أو ساعياً له ؛ وكأنما اختُزلت لغات الناس فأصبحت لا تعدو ألفاظ التخزين والتموين ، والإحصاء والاستيلاء ، والاستيراد والاستكثار ، والمطاحن والمخابز ، وما يدخل في هالة الرغيف النورية من مادة وأدب ! فليت شعري إلام تأول الحال إذا تأزم الأمر ، وضاقت موارد الرزق ، فلا أرض تغل ما يكفي ، ولا بحر يسد ما ينقص ؟!

تمثيل الحال في الخيال مرعب ، فما بالك بتقرير الحس وتصور الواقع ؟

الأمر جد لا مساغ للعبث فيه ، والخطر بادٍ فلا مناص من الاعتراف به ، والتقصير ثابت فلا سبيل إلى التنصل منه . وإذا فاتنا الاستبصار للمستقبل ، فلن يفوتنا الاعتبار بالحاضر . وإذا عجزت السياسة أن تحل مشكلة الرغيف فلا أزعم أن يحلها الأدب . وكل ما يستطيع الأديب أن يقوله للسياسي أن مشكلة التموين لا يحلها أن يكون لها وزارة ، ولا أن تُقصر على أمورها السياسة والإدارة ؛ إنما يحلها أداء الحاكم للواجب ، وقضاء المحكوم للحق . وأقسم بالله جَهْدَ القسم لو أن القائمين على شؤون الناس بسطوا لها الأيدي النظيفة ، وتحروا فيها الأوجه الصالحة ؛ ثم ساووا بين العامة والخاصة في القسمة ، وعدلوا بين الأقوياء والضعفاء في التكليف ، وأيقظوا العيون لخفايا الحيل ، وأنضجوا الآراء لمشتبهات الأمور ؛ ثم عاونهم الشعب بفضائله ، فلا يطمع المنتج ، ولا يدخر المستهلك ، ولا يحتكر التاجر ، ولا يشح الغني ، ولا يجزع الفقير ، لما كان للرغيف في مصر مشكلة ، ولا كان للتموين في الحكومة وزارة . ولكن مشكلة المشكلات هي أن مكارم الأخلاق لا تُباع ولا تُعار ولا تكسب في الزمن القليل ، إنما هي تهذيب الدين الصحيح وصقال الدهر الطويل

احمد حسن الزيات

بين الورق والدوح

[رسالة مهداة إلى المسيو « دى كومنين »]

للدكتور زكى مبارك

حدثت قرائى غير مرة أن ذاكرتى فيها انحراف غريب : فهى ضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام ، وقوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعانى ، ولها قدرة عجيبة على تمثل الملامح والأصوات والألوان ، فمن السهل أن أصف حادثاً رأيته قبل عشرين سنة ، مع الإحاطة بما لابسه من دقائق التفاصيل ، ولكن من الصعب أن أتذكر رقماً سمعته قبل يومين ، إلا أن يتصل بأمر تلتفت إليه الذاكرة بعض الالتفات ، ولأجل هذا أقيد ما يهمنى من الأرقام فى دفتر خاص

وفى هذه اللحظة أتذكر جيداً كيف شهدت عدوان الخريف على آثار الربيع ، ولم أكن شهدت ذلك العدوان قبل أول أيلول قضيته فى باريس ، وأتذكر أيضاً كيف كانت قدماى تخبان فى أوراق الأشجار وأنا أخترق حديقة « لكسمبور » ، وأكاد أتمثل كيف انتشيت حين رأيت ذلك المنظر الجميـل ، وما هو فى الظاهر بجميل ، ولكنه أعانى على فهم جوانب من حيوية الأدب الفرنسى ، ففيه ألوف من صور العدوان البغيض ، عدوان الخريف على آثار الربيع ، بلا تهيب ولا استحياء

وفى يوم عاصف جلست تحت « الدوح » وهو ينظر بحزن إلى تساقط « الورق » ، فوعيت من حواره أحاديث لن أنساها ما حييت . وكيف أنساها وقد زلزلت قلبي ، وأطلعتنى على بعض ما كنت أجهل من سرائر « الأدواح » و « الأوراق » ؟

سمعت « الدوح » يقول فى صراخ مبحوح :

« إلى أين يمضى هذا الورق الساقط ؟ وكيف جحد جميلى عليه ؟ حملته وهو ضعيف لا يقدر على التماسك ، وأمكنته من شرب الندى وارتشاف أكواب الضياء ، وحرمت نفسى عذوبة التمتع بضحوة الشمس فى الربيع ، ونشوة القيظ فى الصيف ، ليجد الفرصة لتذوق النعيم ، فهل حفظ هذا الصنيع ؟

« لقد أبحته أن يمتص دمى كيف شاء ، ليواجه نور الوجود بحرية الطفل الغافل عن جهاد أبيه ، ولكل أب جهاد يجهله الأبناء ولو كانوا من الملهَمين ، فهل عرف الورق الساقط أننى حرمت نفسى نعيم الندى والضياء ليتخايل ويستطيل ؟ »

وسكت « الدوح » لحظات ، ثم صرخ من جديد :

« والآن يعرف الورق أن الشتاء قادم ، وأننى سأحتاج إليه لدفع عوادى البرد والجليد ، فهو ينخلع عنى ، ليتركنى بلا غطاء ، فى قر الشتاء ! »

ويسمع الورق أنين الدوح فيهتف :

— ما عتبك على أيها الدوح ؟ ما عتبك على وقد بذلت فى البر بك غاية ما أملك ؟ ألا تذكر أنى ضربت على مصاحبتك فى السيطرة والاستعلاء شهوراً من الزمان ؟ ألا تعرف أنى عققت من أجلك أمنا الأرض ؟ فما ذنبى إذا اشتهيت العودة إلى الأم الرءوم ، وهى أيضاً تحتاج إلى من يدفع عنها البرد والجليد ؟

وسمع الدوح هتاف الورق فأجاب :

— الأرض أمى وأمك ، ولكنى فهمت عنها ما لم تفهم ، فقد حدثتنى ألف مرة أنها لا تريد أن يرجع إليها غير الأموات من أبنائها الأعزاء ، فإن كنت مت أيها الورق فارجع إلى أمك الأرض !

فزمجر الورق :

— أنا مت ؟ أنا ؟ وهل يموت من يرجع إلى حجر أمه الغالية ؟

فيقول الدوح :

— نعم ، ثم نعم ، يموت من يرضى بأن تدوسه الأقدام ، ولن يكون لك نصيب غير الدوس ، يا جهول !

وهنا قال الورق للدوح :

— هل تنسى أنى أدفأتك فى الصيف ؟

فقال الدوح للورق :

— لم أكن أحتاج إلى دفء فى أشهر الصيف ؛ وإنما أحتاج إلى الدفء فى أشهر الشتاء

فقال الورق للدوح :

— لا أستطيع سماع صوتك وأنت مجلل بالسواد

فقال الدوح للورق :

— إنما تجللت بالسواد حداداً عليك . ألا تذكر أننى كنت

أحبك حباً هو الغاية فى الكرم ، لأنه حب القوى للضعيف ؟ ألا تذكر أنى كنت أقاوم العواصف والزوابع لأقى خدودك ذلة الالتصاق بالأرض ؟ ألا تعرف أننى أعانى لفراقك كروباً لا تطاق ؟

قال الورق :

« أتحبنى إلى هذا الحد ، أيها الدوح ؟ »

فتأوه الدوح ثم أجاب :

« لا أحبك لأنك ورق ، فأنت تعرف أنى صبرت على تقلب الأوراق أربعين عاماً أو تزيد ، ولن أموت يوم أموت بسبب تقلب الأوراق — وإنما أحبك لأننى أنشأتك كما يحب الله هذا الوجود ، فأنت بعض ما صنع دمى أيها الورق ، ولن تعيش بعد فراق إلا بفضل ما سكبت فى عروقك من الدم النفيس ، وقد حل عليك غضبى ، فلا بقاء لك بعد اليوم ... وهل تستطيع أن تطبّ لما صنعت بنفسك أيها الورق الساقط ؟ لقد دعوتك إلى الترفق بمصيرك فلم تسمع ، ومن أجل غفلتك لبست عليك ثوب الحداد ، ولم أستغرب من فرحك بمصالحة الأرض ، فأنا أعرف أنه لا ترحب بالاستعلاء غير الأقوياء ، كما أعرف أن الأم لا ترحم من أبنائها غير الضعفاء » .

قال الورق :

« وبأى حق تستطيل على ، أيها الدوح ، وأنت أسود مظلم ، لا ترجى لك صحوة ولا معاد ؟ »

قال الدوح :

« ذلك سواد الشباب ، يا أحمق ، وليس سواد الحداد[1] ، ولن تقيم الحياة لدلالك أى ميزان ، وهل تطول حياتك حتى ترى ازدهائى بالورق الجديد فى الهوى الجديد ؟ إن الدم الذى سوّاك ، سيسوى ورقاً سواك ، وسأعبث هذا العبث بالأوراق إلى أن أبلغ الثمانين أو التسعين ! »

قال الورق :

« خذنى إليك ، أيها الدوح ، فقد اشتقت إلى ساعدك القوىّ المتين »

فأجاب الدوح :

« تعال إلى ، إن استطعت ، أيها الورق الساقط ، فأنا لا أملك البعث كما أملك الإنشاء ، وهل أملك مساماة صاحب العزة والجبروت ؟ »

وتكلف الورق ما لا يطيق ليرجع إلى الدوح من جديد ، ولكنه عجز عن تحقيق ما يريد ، وتلك نهاية من يجهل السر فى تمتعه بشرف الوجود ، والشرف معناه الارتفاع ، وقد انحط الورق بسقوطه على الأرض ، فأمسى وهو ضعيف مَهين

ثم قال الدوح :

— لن نلتقى بعد اليوم ، أيها الورق الساقط ، وكيف نلتقى وأنا أجد عناء فى التعرف إلى هويتك ؟ وهل أراك إلا وهماً يصوره الرفات المسحوق ، مع قرب العهد بالفراق ؟

فأجاب الورق :

— ستجدنى فى الربيع المقبل

قال الدوح :

— سأجد فى الربيع المقبل ورقاً غيرك

قال الورق :

— كنت أنتظر أن يكون فى سخطك علىّ ما يزهدك فى جميع الأوراق

فصاح الدوح :

— كان ذلك لو أنى أردت الانتفاع بالتجارب ، والانتفاع بالتجارب يدل على العقل ، ولكنه يشهد بضعف الحيوية ، والخير أن نواجه الحياة فى كل يوم بأحلام الناشئين ، لا بعقول الكهول ، لتبدو لنا الحياة بكراً فى كل لحظة ، كما تبدو الغابة المؤذنة بالوحشة والأنس فى كل حين . ولو أنى اكتفيت بما جربت من أخلاق الورق لكان من المستحيل أن أراك ، بعد أن عرفت ما عرفت من شمائل سواك

قال الورق :

— وأستطيع أنا أيضاً أن أغفل الانتفاع بالتجارب وأرجع إليك فى الربيع المقبل

فضحك الدوح وقال :

— وهل كانت لك معى تجارب أيها الورق ؟ هل رأيت منى مايعاب حتى تزعم أنك فارقتنى عن عتاب يمحوه التفضل بالإعتاب؟ أنا الذى أنشأتك ، وأنا الذى ربَّاك ، وأنا الذى أوحى إليك معانى الشوق إلى الندى والضياء ... أنت لم تفارقنى لأنى جفوتك

(١) هذه مغالطة من جانب الدوح ، فقد اعترف قبل سطور بأنه لبس السواد حداداً على الورق ، وسنرى بعد سطور أنه لفراق الورق حزين .

أو أسأت إليك ،وإنما فارقتني لأنك ضعفت عن صحبتي ، كما يضعف السحاب عن مصاحبة الجبال

قال الورق :

— خذني إليك ، أيها الدوح ، لأذوق من دمك ما كنت أذوق

فأجاب الدوح :

— عيب الأقوياء أنهم لا يصفحون عن الذنب ولو عفّر جبينه بالتراب ، وأنت أيها الورق الساقط جحدت جميلي ، فلن أراك بعد اليوم ولو استشفعت بأزهار الربيع

قال الورق :

— وهل يكون الورق الجديد أجمل مني أو أصدق مني ؟

فأجاب الدوح :

— لن يكون أجمل منك ولا أصدق منك، فتجارب أربعين سنة دلتني على أنكم جميعاً من وحل واحد، ولكن الورق الجديد سيلقاني وهو على جانب من الغفلة والجهل ، والغفلة والجهل يزيدان في قيمة الجمال ، فإذا تعاقل وتعالم ، كما تعاقلت أنت وتعالمت ، فسيكون مصيره إلى أمه الأرض ، وأستريح منه قبل أن يستريح مني

قال الورق

— أيكون معنى هذا الكلام أن لك سياسة مرسومة في امتهان الأوراق ؟

فأجاب الدوح :

— معنى هذا الكلام أني أحقد حقداً أبدياً على من يجحدون المعروف . لقد قضيت أربعين سنة أو تزيد في تعهد الأوراق بالرفق والعطف ، فما حفظت ورقة عهدي ، ولا اعترفت بجميلي . . . ويعزيني أن الله ينتقم لي فما تخلت عني ورقة إلا كتب الله عليها الذبول والفناء

قال الورق :

ومع هذا فأنت لفراقي حزين ، باعترافك في بداية هذا الحوار ، وهذا الحزن هو انتقامي من غطرستك وكبريائك ، وأنا أتوعدك بقول أحد الشعراء :

سأنساك فانظر كيف تحيا إذا انقضى
نصيبك من روحي وحظك من قلبي

ونظر الدوح فلم ير الورق ، فأين ذهب ؟ أين ؟ أين ؟

لقد عصفت الريح فأطارت ما كان في « لكسمبور » من أوراق ، وباد ما تعاقر الحديقة من «خشخشة» كانت أروع ما سُمع من الغناء في باريس(1)

قال الراوي :

وكنت فتى مصرياً لم يسمع مثل هذا الحوار بين الورق والدوح، فمصر الوفية لا تشهد انحلال الورق عن الدوح في خريف أو شتاء بغض النظر عن الأشجار المجلوبة من بلاد لا تعرف خلائق وادي النيل

قال الفتى المصري :

وتسمعت ما يقول الدوح بعد ذهاب الورق فوعيت هذه الكلمات:

— إلى أين ذهبت أيها الورق ، وكنت الشاهد على أن الضعف من عناصر الجمال ؟ إلى أين ذهبت وكان عطفي عليك دليلاً على أني من الأقوياء ؟ إلى أين ذهبت وبفضلك سمعت تغريد الحمائم والبلابل والعنادل ، ولم أر بعد ذهابك غير وقر الجليد في « أعوام » الشتاء ، وكل يوم في الشتاء بعام أو عامين لمن يعيش بلا أليف ؟

ثم سمعت الدوح يقول :

— لو كنت أملك من أمري ما يريد الهوى لخلعت العذار في البحث عن الورق الذاهب ، ولكن الطبيعة التي أمدتني بالقوة قيدتني بالوقار ؛ فأنا جاثم في مكاني ، وإن كان هواي في بلد بعيد بعيد ، وآه ثم آه من المراعاة لما يوجب التغافل عن الهوى المشبوب !

وسمعته يقول :

— سقط عني الورق ، لأنه ضعف عن مصاحبتي في أيام

(1) الخشخشة كلمة فصيحة ، ولها عندي شواهد

الشدائد ؛ وهل يطالَب الضعيف بما لا يطيق ؟ فما عتبي عليه وهو أضعف من أن يقاسى المصاعب فى أيام الشتاء ؟ وهل يتوهج الجمال إلا فى أوقات اللين والصفاء ؟

ثم سمعت الدوح يقول :

«ألا يمكن اتهامى بإرغام الورق على أن يصير إلى ما صار إليه ؟ كان فى مقدورى أن أضاعف له الكمية المبذولة من دمى ، ولكننى جهلت الواجب فارتضيت أن يعيش فى الخريف بمثل ما كان يعيش فى الربيع . ولو أنى ضاعفت له الدفء لكان من الممكن أن يفكر فى حفظ الجميل ، والدنيا أخذ وعطاء ، ولو كره الأوفياء »

قال الفتى المصرى وهو يحاور قلبه بعد سماع ذلك الاعتراف :

لقد نطق الدوح بالقول الفصل ، وأجاب عن هذا السؤال :

« ما الذى يمنع من أن نعيش كما تعيش بعض الأشجار التى تخلع أوراقها فى الخريف لتكتسى بأوراق جديدة فى الربيع ؟ »

وما وجهت إلى نفسى هذا السؤال إلا بعد أن عانيت ألوف المكاره من الوقوف عند حالٍ واحد فى الحب والبغض ، والاقتراب والابتعاد . والأوراق هى العواطف فما بالنا نحرص حرص الأشحاء على استبقاء تلك الأوراق ، وفيها ما يصل إلى الذبول والجفاف ، ومن الخير أن نخلعه بلا رحمة ولا إشفاق ؟ ما بالنا نحرص عليها حين تتصل بأحباب يصعب عليهم أن يقاسوا شتاء الزمان ؟

إن الله لا يضن على الشجر بالورق الجديد عند قدوم الربيع ، فهل يضن علينا بالهوى الجديد عند استهلال الرخاء ، وقد عرفنا من كرم الله ما لا تعرف الأدواح والأوراق ؟ وهل يملك الدوح من الحيوية عند سقوط الورق مثل الذى نملك من الروحانية عند خمود الوجد ؟ أكاد أجزم بأن الماء المكنون فى الشجرة العارية من الورق لا يقاس إلى الجمر المكنون فى القلب الخالى من الحب ، فنحن والشجر إلى ربيع قريب ، وإن استطال الشتاء

وبعد لحظات عاد الفتى المصرى إلى محاورة القلب

— الدوح مجلل بالسواد ، والسواد شارة الحزن ، فما بال الدوح يحزن وهو غاية فى القوة ؟

— الحزن من علائم القوة ، وليس من علائم الضعف ، فهو دليل على شعورنا بقيمة ما نفقد ، ولا يقع ذلك إلا ونحن أقوياء ، والجهلة هم الذين لا يفرقون بين الحزن والذهول

— وكيف ؟

— أنسيت ما قرأناه لأناطول فرانس من أن الموت نتيجة لضعف الـ vitalité

— أذكر ذلك ، ولكنى أخشى أن يكون الحزن هو أيضاً نتيجة لضعف الحيوية

— أنت مخطئٌ فى هذا التأويل ، فالحزن هو صوت الشهوة إلى النعيم المفقود ، والشهوة لا تصدر عن النفس إلا فى حالة الفتوة والأريحية والطغيان

— وإذن فما بال جماعات من خلق الله تندد بالمحزونين ؟

— كما تندد جماعات من خلق الله بالفرحين !

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أريد أن أقول إن الحسد هو الذى يحمل بعض الناس على التنديد بأهل الأحزان والأفراح ، وما قام فى الدنيا أدب ولا مجد ولا سلطان إلا بفضل ما فى عاطفة الحزن أو الفرح من ثورة واشتعال

— أتريد أن أحزن ، يا قلبى ؟

— أريد أن تفرح بالحزن الصادق ، فقد كان شعار الأنبياء ؛ أما الحزن الكاذب فهو شعار المتصنعين . إن للحزن آداباً يجهلها أكثر الناس ، ومن آداب الحزن أن يصدر عن عاطفة لا عن تصنع ، وأن يأخذ وقوده من الإحساس لا من الخيال ، وأن يردنا إلى الصدق فيما نكتب وفيما نقول ، وأن يزيد فى احترامنا لأهل الأفراح ، فهم إخوان أعزاء ، ولو نقلهم الفرح إلى آفاق الجنون . أنظر إلى هذا التمثال وذلك التمثال !

قال الفتى المصرى :

ونظرت فرأيت تمثالين : أحدهما لعامل مكدود ، وثانيهما لفتى تحتضنه فتاة بأسلوب يمنع من وصفه أدب أهل الشرق ، فقد ضمته إليها كما يضم الحبيب المحبوب ، وما أحب أن أزيد ، وهل أستطيع القول بأن ذلك التمثال أفصح عن أشياء ينكرها الحياء ؟ من بلايا الزمن أن الكاتب لا يملك من الحرية ما يملك المثّال !

كان هذان المنظران المتباينان يمثلان السلامة الوجودية أصدق تمثيل ، فالعامل المكدود هو مثال الحزن الشريف ، واحتضان الفتاة للفتى هو مثال الفرح النبيل ، وليس من العيب أن نفرح أو نحزن بإفراط وإسراف مادمنا صادقين . وهل تهجم الفتاة على الفتى إلا طاعةً لنزعة كريمة هى سر البقاء ؟ وهل تجهد وجه العامل المكدود إلا فى سبيل السعادة لأطفال يتمنى أبوهم أن يجهلوا معنى الفقر فى أيام الشتاء : شتاء الزمان ؟

ثم عاد الحوار بعد لحيظات :

— حدثتك عما قرأنا لأناطول فرانس ، فهل تذكر ما سمعنا لعهد الطفولة فى سنتريس ؟

— لا أذكر من سنتريس غير أطياف بددتها أحلام باريس ؛ فماذا تريد ؟

— كان أهل سنتريس يقولون : « لما يخضرّ التوت ، البرد يموت »

— وما معنى ذلك ؟

— معناه أن الأوراق هى الوقاية من البرد !

— وإذن ؟

— وإذن تكون العواطف هى الوقاية من شتاء الزمان

— وما حال الشجرة التى لا ينخلع عنها الورق فى أى وقت ؟

— هى شجرة سعيدة أعاذها القدر من اختبار الأحباب ، ومزية هذه الشجرة أنها تتذوق ما فى الأرض والهواء من حيوية عارمة لا تلتفت إلى تغير الفصول إلا فى أندر الأحايين !

— وهل فى مقدورنا أن نكون مثل تلك الشجرة ؟

— إذا تخلقنا بأخلاقها

— وكيف ؟

— فى الأسبوع الرابع من آذار تظهر تباشير الورق الجديد فوق غصون الأشجار التى عانت آلام العري فى الشتاء ، وننظر فنرى الأشجار الصغيرة أورقت قبل الأشجار الكبيرة ، فنفهم أن للشباب يداً فى سرعة الإيراق ؛ وقياساً على ذلك يكون الشباب الدائم هو الذى يحمى بعض الأشجار من سقوط الورق فى الشتاء

— أيكون لهذا الملحظ دخل فى تقديس شجرة « الجميز » عند قدماء المصريين ؟

— ليس هذا التخريج بغريب ، وقد يضاف إليه أن لشجرة الجميز ميلاً إلى البر بالجيران ؛ فهى تمد فروعها لتمتعهم بالثمار والظلال بلا انتظار للجزاء !

— أراك تهرب من الجواب !

— وأراك لا تفهم المعاريض !

— أنا أحب أن أعرف كيف أحتفظ بالشباب

— إذا احتفظت بالعواطف

— وكيف أحتفظ بالعواطف ؟

— إذا احتفظت بالشباب !

— وكيف أحتفظ بثروة من أعدائها الليل والنهار ؟

— أنت أقوى من الليل والنهار ، إذا أردت ؟

— وكيف ؟

— إجعل الليل والنهار من خدامك

— كيف ؟ كيف ؟

— لا تضيع لحظة واحدة بلا عمل نافع ، فالعمل الموصول فن من السيطرة على شباب الزمان ؛ ألم تسمع بأخبار نوح ؟

— وما أخبار نوح ؟

— عاش فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً

— وهل يعيش الإنسان ألف سنة إلا خمسين عاماً ؟

— بقليل من الفهم تدرك أن عمر نوح لا يرجع إلى الكمية الصورية ، وإنما يرجع إلى الكمية المعنوية ؛ وقد استطاع نوح باختراع « السفينة » أن ينقذ الإنسانية من « طوفان » الفناء ؛ فالعشرات من أعوامه تعد بالمئات . فاصنع صنع نوح ، لتعيش عمر نوح !

قال الراوى :

ثم رأيتنى أهتف بقول أحد الهائمين :

ولو أن عمرى عمر نوح وبعته ... بساعة وصل منك قلت كفانى

فالله وحده هو الذى يعلم قصة الورق والدوح . وهو الذى يعلم ما أعانى من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد . وهو الذى يعلم كيف أفر من التصريح إلى التلميح ، لينجو « الورق » من الافتضاح

إن عاد الربيع ، إن عاد ، فسوف نعقد « معاهدة ودية » لا ينقضها خريف ولا شتاء

وشبابى ، شباب الجسد والروح يحدثنى بأن الربيع إلى معاد

ويلطف الله بمن يقول :

لنجواك أستبقى شبابى فماطلى ... كؤوس الهوى قبل ابيضاض المفارق

زكى مبارك



الانســـــان الـكامل

للدكتور جواد على

عرّف المتصوفة الإنسان الكامل بقولهم : هو الإنسان الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية الكلية والجزئية ، وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية ؛ فمن حيث روحه كتاب عقلي مسمى بأم الكتاب ، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ ، ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات ؛ فهو الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة التي لا يمسها ولا يدرك أسرارها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية . فنسبة العقل الأول إلى العالم الكبير وحقائقه بعينها نسبة الروح الانساني إلى البدن وقواه . وإن النفس الكلية قلب العالم الكبير ، كما أن النفس الناطقة قلب الانسان ؛ ولذلك يسمى العالم بالإنسان الكبير[١]

ويكاد يكون الإنسان الكامل نفس « الانسان الأول » لدى أرسطو[٢] ، أو « الحكيم » لدى أفلاطون ، أو « الانسان الفاضل » لدى الفارابي ، أو « الانسان المطلق » لدى جماعة إخوان الصفاء في البصرة [٣] ؛ وتكاد الفكرة تكون نفس فكرة « الانسان الذي لا إنسان فوقه » übermensch لدى هاينريش مولر من رجال أواخر القرن السابع عشر مبتدع هذه اللفظة لأول مرة[٤] والشاعر الشهير جوته ، والفيلسوف نيتشه[٥] أو فكرة السوبرمان في اللغة الانكليزية Superman مع اختلاف بسيط سببه وجهة النظر والتفكير

وفكرة الانسان الكامل من الأفكار التي ترد على لسان المتصوفة كثيراً . وقد استعملها المتصوف الشهير محي الدين بن العربي[١] المتوفى سنة (٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م) وعلى الأخص في كتبه ومؤلفاته . وتكاد الفكرة تكون محور تعاليمه والنقطة التي تدور حولها أبحاثه التصوفية[٢]. وابن العربي هـذا من الشخصيات الاسلامية العظيمة التي تنتمي إلى أرومة عربية عريقة في القدم . شخصية أثرت في الحياة الروحية الاسلامية تأثيراً عظيما ولا سيما في الحياة العقلية للأتراك والفرس[٣] . وتتصل آراء هذا الصوفي بعضها ببعض بصورة متسقة منتظمة اتصال الحلقة أو السلسلة على غموض بعض أفكاره وعويص معانيه ، وذلك أمر يقتضيه التصوف ذاته والموضوع الذي يدور حوله البحث . والظاهر أنه استمد آراءه في الانسان الكامل كما استمد ذلك سائر المتصوفة من الصورة التي رسمها مثاليو المسلمين للنبي الكريم ، إذ نرى الصورة التي تصورها المتصوفة للانسان الكامل تسير جنباً لجنب مع الصورة التي يذكرها أصحاب السير للرسول نبينا العظيم[٤]

استعمل محي الدين بن العربي هذا الاصطلاح كاستعمال أرسطو لكلمة « الانسان الأول »[٥] أو استعمال فلاسفة اليونان لكلمة nus أو العقل ، أو كلمة arché تقريباً[٦]؛ استعمل هذا الاصطلاح ليدل على نسبة العقل الأول إلى العالم الكبير أو النفس الجزئية بالنسبة إلى النفس الكلية ليدل على فكرة طالما أفنى المتصوفة أنفسهم شوقاً إليها إلا وهي فكرة المعرفة والتجلي عن طريق الوجد والفناء حتى يصل الانسان في النهاية إلى « الشجرة » وهي درجة الانسانية الكاملة التي لا إنسانية فوقها أبداً[٧] . ونظراً لمكانة هـذه الفكرة وما يحيط بها من إبهام وغموض ، تصورها المسلمون لذلك بصور شتى وأشكال لا حد لها خرجت في كثير من الأحايين من عالم الفلسفة الاسلامية إلى عالم آخر أبعد من عالم الاسلام والتصوف بدرجات

---

(١) راجع تعريفات السيد الجرجاني طبعة استانبول سنة ١٣٢٧ ص ٢٥

(٢) راجع : Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesl Bd 79 1925 p. 241

(٣) وكتاب أرسطو Theol d. Arist s. o. s,234
Max Horten Philo d. Islam p, 347

(٤) راجع كتاب Schmidt Geistlichen Erquickst unden and Phil wort p. 679

(٥) راجع عن ذلك Berg der ub in der modernen literatur 18 97 R. m. meyer der uber in der Zeitschrift f. wortforschung Bd 1 1900

---

(١) راجع عنه الطبقات الكبرى للشعراني جـ ١ ص ١٦٣

(٢) راجع مجلة الجمعية الشرقية الألمانية مجلد ٧٩ ص ٢٣٨ سنة ١٩٢٥

(٣) نفس المصدر

(٤) راجع : Tor Andrae die Person muhammeds in lehre und glauben seiner gemeinde 1917 Kap. 6

(٥) راجع Theol d. Aristo s. o. p. 234

(٦) Max Horten phil d. Islam p. 347
وكذلك Goldzfher 42 f

(٧) راجع مصطلحات الصوفية وكتبهم أمثال : اصطلاحات الصوفية الواردة في الفتوحات المكية طبعة استانبول سنة ١٣٢٧

وقد ظن المستشرق ماكس هورتن أن ذلك العالم هو العالم البراهمي وهو عالم غني بهذه الأفكار مملوء بهذه الآراء[١] ، وظن المستشرق شيدر — وهو مستشرق يرجع أصل كل شيء في الحضارة الاسلامية إلى مصدر إيراني قديم — أن مصدر هذه الفكرة الآراء المانوية الايرانية القديمة . يرى أن هذه الآراء أثرت في التصوف كما أثرت في فلسفة أبي بكر الرازي وإخوان الصفاء وناصر خسرو وغيرهم ، وذلك لوجود تشابه رآه هذا المستشرق بين فكرة الانسان الكامل وبين المعتقدات المانوية القديمة[٢]

وترد نفس هذه الفكرة في فلسفة فيلون Philon[٣] وفي الفلسفة البوذية حيث يكون بوذا أكمل مخلوقات الله ، فيه اجتمعت المتناقضات، وفيه تم كل شيء، فهو الانسان الكامل[٤] وهو رمز وحدة الوجود ، فيه اجتمعت الروح بالمادة بصورة لا يتصورها إلا في الله ، لذلك هو المثل الأعلى للبشرية ، وهو الانسان الكامل ؛ وعلى كل إنسان يريد أن يصل إلى مرتبة البشرية الكاملة أن يسعى سعياً روحياً للوصول إلى هذه الدرجة التي لا تتم إلا على يد قطب أو وسيط ، وهذا القطب أو الوسيط هو نفس الوسيط الذي استعمله الصوفية والاسماعيلية والشيع الاسلامية السرية للوصول إلى واجب الوجود[٥]

وقد مزج المغيرة وهو أحد الذين اتهموا في دينهم (أحرق عام ٧٣٧ م[٦]) بين فكرة « الانسان المطلق » وبين نظرية العدد والبروج التي ترد في مذهب الفيثاغورسيين والمنجمين فقال بأن الانسان أكمل المخلوقات طراً ، لأن له اثني عشر عضواً يقابل كل عضو من هذه الأعضاء برجاً من البروج ؛ لذلك فالعالم الأكبر اجتمع هنا في العالم الأصغر ، فهو هو هو ، والعالم الأصغر هو نفس العالم الأكبر . وحيث أن آدم هو أبو البشر فهو يمثل الصلة بين العالم الأكبر Markokosmus وبين العالم الأصغر Mikrokosmus ؛ فهو إذاً أكمل البشر وهو الانسان الأول أو الانسان الكامل على الاطلاق

وتقارب هذه النظرية ، على ما يقوله ماكس هورتن ، نظرية « الحروفية » وهم الذين يمثلون فلسفة العدد في الاسلام ، والذين ينتهون بحكم هذه التعاليم إلى الحلولية على نحو ما ينتهي إليه أمثال هؤلاء في الشرق والغرب ، مثل ما انتهى إليه نيقولا كوزانوس Nicolaus Cusanus[١] الذي كان يقول بأن الواحد مرآة صافية للكل ، وأن العالم الأصغر هو العالم الأكبر ، فيه حل الواحد وفي كل شيء حل الله ، على نظرية ما في الجبة إلا الله . وهو في تعاليمه يشابه الفيلسوف العربي الكندي ويكاد يكون أحد تلاميذه أو أتباعه[٢] . ومثل الفيلسوف لايبنتز Leibninz[٣] في نظريته عن الذرات الروحية Monaden أو طاجينلا الايطالي المشهور والشاعر الشهير جوته في مذهب الحلول[٤]

وهذا الإنسان الكامل الذي أبدع في وصفه المتصوفة ، هو إنسان خيالي روحاني ليس له مثيل بين سكان الأرض، يجمع بين العالمين العالم الروحاني والعالم المادي، لا يعبأ بهذا الكون ولا يقيم له وزناً ، وهو على طرفي نقيض مع « الإنسان الأعلى » ، أو السوبرمان الذي ابتدعه فلاسفة أوربا المحدثون ، ويعنون بذلك الإنسان الذي يحبذ هذا الكون ويقدسه ، يريد السيطرة ويحترم مبدأ القوة ، لتناقض موجود في الأساس بين الفكرتين الشرقية الخيالية والغربية العملية الاكتشافية

وقد جمع عبد الكريم الجيلي المتوفى عام ١٤١٠ م تقريباً آراء فلاسفة الاسلام في الانسان الكامل ، في كتاب سماه : « الانسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل » استفاد منه المستشرق الانكليزي نيكلسون كثيراً إذ ذكر وجهات نظر المسلمين في هذا الانسان أثناء بحثه عن التصوف الاسلامي فليرجع إليه[٥] .

ميراد هي

(١) راجع Max Horten Die philo des Islam p. 105 ff
(٢) راجع المجلة الشرقية الألمانية Z. Dmcr مجلد ٧٩ ص ٢٤٢
(٣) راجع Goldmiher k. 42 f.
(٤) راجع Tiele Kompend d. rel Gesch 1903 s, 238.
(٥) Max Horten p. 348
(٦) نفس المصدر ص ٣٤٧
وكذلك Goldmiher abh. G. G. W. 1906
أيضاً Jacob Bektaschijje abh. Bayr A, W. 1909 47 A. 2.
١٨٠٥

(١) وهو أحد مشاهير المتصوفة في أوربا ولد عام ١٤٠١ وتوفي عام ١٤٦٤ راجع عنه ويند لبند في كتابه تاريخ الفلسفة ص ٢٦٧ ، وكذلك Max Horten p, 348
(٢) نفس المصدر
(٣) فيلسوف ولد عام ١٦٤٦ وتوفي عام ١٧١٦ وقد تأسست جمعية عرفت باسم جمعية لايبنتز للأبحاث . مقرها برلين
(٤) راجع ديوانه Ost West Diwan وأشعاره
(٥) R. A. Nikelson the Perfect man, in studies in Islam mysticism 1921

مطالعاتي حول المرفأة

المدينة الضائعة

للأستاذ صلاح الدين المنجد

تهت الليلة في مخارم الجبال مع « جوكليه » سعياً وراء المدينة الضائعة[1] . إن هذا الكاتب ليهزني ؛ فهو وصاف للعادات مرة ، قصاص مغال أخرى ، متفلسف هزاء على نحو فولتير تارة ، مؤرخ يمزج التاريخ بالأدب أحياناً . . . وها أنذا أغامر معه الليلة في روايته الأخيرة ؛ فأرشف العذوبة ، وأهيم مع الخيال ، وأسمع نداء الحكمة والحياة

لا بأس على القراء أن يتيهوا معي ، فالرواية طريفة والقصاص بارع . ها هو ذا « جوكليه » في جزيرة « لوسون » من الفيليبين يلتقي بفتى يتدفق حماسة وقوة ، يريد أن يفتش عن كنز عظيم تركه ملاح صيني كبير ، في مدينة ضاعت بين الجبال ، في شرق الجزيرة منذ أربعة قرون . وكان نداء المجهول ، وحلاوة المغامرة ، يدفعان الفتى إلى البحث عن الكنز ، فأثر في رفيقه القصاص وساقه معه

وكان يصحبهما رفيق ثالث شاذ الطبائع ، غامض العواطف ، اسمه « دون انطونيو » عرفوه في الفندق . وكان هذا يود الهرب من المدينة الزائفة لأسباب غامضات

وهام الثلاثة في طريقهم ، وقد صحبوا دليلين قويين ، وبضعة بغال . . . ثم تغلغلوا في قلب غابات المتوحشين . وكان يصادفهم أخطار ترعب ، ومصاعب لا تحد : لذع من الشمس ، وخبل من الهواء ، وغرق في الماء ، ونهس من الذباب ، وتيهان في المستنقعات ؛ فضلاً عن شهق الجبال وعمق الأودية ، واشتباك الغابات ، ووفرة الشباك المنصوبة على حفافي الطرقات

وفاجأتهم قبائل النكريتو بسهامها في إحدى الغابات ، ففروا بعد جهد وعذاب . ومضت القافلة الصغيرة تماشي الهضاب ، وتصعد في الجبال ، وتفتش عن « المدينة الضائعة » في كل مكان . فاستيقظوا ذات يوم ، بعد أن قذفهم واد عظيم ، وإذا بهم يرون من شواهق الذرى ، في حضن جبل ، على حافة بحيرة راكدة : مزارع أرز واسعة ، وآثار بناء شامخ ، تقوم عند أقدامه مساكن صينية حقيرة . فخفوا نحوها ، فاستقبلوهم بصمت وحذر وجفاء ، وأدخلوهم باباً في ذلك البناء ... فعلموا أنهم أضحوا سجناء في مدينة واسعة ، قامت في قلب الجبل ، لا يدرون من أمرها شيئاً ...

وساقوهم إلى شيخ صيني نبيل ، فأعلمهم بعد جهد ، أنهم في المدينة التي شادها « لماجونك » الملاح الصيني العظيم

« لقد قضى الوقت الطويل في البحث عن أعوانه . كان يريد أعواناً لا تبش وجوههم لبريق المال الذي يحيط بهم ، ومكاناً لا تصل إليه الأقدام ، فاختار هذا الجبل مقاماً له عندما يقفل من قرصنته في البحار . وعاش مع أصحابه حياة هادئة غامضة لا يستطيع مؤرخ أن يكتب شيئاً عنها ؛ ثم أخضع القبائل التي كانت تعيش في الغابات المجاورة والجبال ، وجعلهم عبيداً له طول الحياة ... !

« ولم يفكر قط واحد منهم ، ولا واحد منا ، أن يعود إلى البلاد المتمدنة التي يضطرب فيها كل شيء ... فإذا ومضت هذه الفكرة في رأس أحدنا علمنا أنه مريض . . .

« ولقد وضعنا في طريق ذلك العالم المتمدن عقبات كثارا لتعجز كل قوة أنسية عن اجتيازها ... نعم ، أيها السادة ، تلك قصة الملاح العظيم ، وإني لآسف أن أراكم بيننا ، وإن سعادة هذا الشعب الهادئ الذي يعيش هنا توجب على سجنكم عندي لئلا تغروهم بالعودة إلى دنيا المصائب والبلايا ... ! »

وسجن الأصحاب الثلاثة ، ولكنهم تحسسوا الأخبار ، وعلموا أن ذلك الملاح الشقي ، أودع كنوزه إحدى جزر المحيط قبل أن يموت ... ففروا من سجنهم بعد أن رأوا الموت مرات ، وفقدوا أحد الأدلاء . على أن الفتى « ميجيل » ما كان في هذه المرة يبتغي نوال المال ، فلقد أراد أن يسعى وراء حياة هادئة ، ليس فيها

(1) René Jouglet : La Ville Perdue (B. Grasset, édit)

شيء من « البوكر » ولا « السيست » وغيرها ...

ها هم أولاء يتيهون في البحار ، ينتقلون من جزيرة إلى جزيرة دون أن يعثروا على التي سمعوا وصفها ، فقرروا أن يعودوا من حيث أتوا ... ولكن عاصفة مجنونة حملتهم إلى جزيرة بعيدة : كلها أعشاب خضر ، وبرار محروثات ... وإذا هم بين أناس من الصين علموا أنهم أحفاد الملاح الكبير ... وأدركوا أن تلك الأراضي كنوز الملاح ... فعاشوا بسذاجة وانطلاق ...

وخطر على بال القصاص أن يعود مع الفتى ، فعادا . . .

أما « دون أنطونيو » ، فقد آثر البقاء هناك ، وقال :

« لن أستطيع العيش في المدن . إن فيها جدراناً كثيرة تخنق المرء ... كل يوم فيها اصطدام واضطراب وظلم ... إن فيها قيوداً كثيرة . إنها سجون مظلمة ... وسيبحث عني أولئك الذين عرفتهم فلا يجدونني ، وسيحسبون أني مجرم آوتني السجون . . . ليقولوا ما شاءوا ... فأنا أعيش مع المتوحشين ، ولكني حر طليق ... لا يقيدني قيد ، ولا يخيفني مخلوق ... نعم ، وسيعلمون بعد حين أن عدد الهاربين من المدن ومن المدنية ومن الترف إلى الطبيعة سيزداد وينمو ... ! »

وعاد الصديقان وحدهما ، وقد علما أنه لا بد لهما من العودة يوماً ليستجيبا لنداء المجهول ، وليعيشا في الأرض التي لا تعرف الشقاء ، أرض الأعشاب والمرجان ... » ا . هـ

* * *

أين أنت أيتها الأرض البعيدة التي ستضمينني ؟

أيها المجهول الذي يناديني ، ادفعني إلى تلك الأرض الهادئة لأستريح من لؤم الإنسان ... !

ادفعني ... لأحيا ... !

(دمشق) **صموح الديه المنجد**

(١) لعل القارئ يلاحظ الشبه الشديد بين هذه الرواية ، وبين « نداء المجهول » لأمير القصة الأستاذ تيمور

في الفلسفة الإسلامية

إخوان الصفاء (*)

للأستاذ عمر الدسوقي

مقدمة

في أواسط القرن الرابع الهجري ذهبت سطوة الخلافة العباسية واستبد بالخلفاء مواليهم من فرس وديلم وترك، وساموهم الخسف وسوء العذاب، فاستقل كثير من الأمراء عن بني العباس وأسسوا دويلات صغيرة: كآل بويه، وآل حمدان، والساسانيين وغيرهم، ولم يبق للخليفة من مظاهر القوة شيء

بيد أن هذا الانحطاط السياسي في الدولة لم يمنع الحياة العقلية من الازدهار لتنافس الأمراء في تقوية دويلاتهم علمياً وأدبياً؛ فنما الشعر ونضج التفكير، واشتدت حركة النقل والبحث في العلوم الفلسفية على اختلاف شعبها ثم هضمها وصبغها بالصبغة الإسلامية

وكان من عواقب الانحطاط السياسي للدولة العباسية تكوين كثير من الجماعات السرية وغير السرية التي تحاول القضاء المبرم على العباسيين حتى تضع غيرهم مكانهم، أو توجد لنفسها كياناً مستقلاً. ومن هذه الجمعيات التي ظهرت في منتصف القرن الرابع الهجري «جماعة إخوان الصفاء» وهم من الشيعة الباطنية الذين لم يرضوا عن الخليفة العباسي كما لم يرضوا عن الخلافة الفاطمية في مصر. وحاولوا قلب النظام السياسي بقلب التفكير العقلي وإيجاد ثقافة جديدة يعتنقها شباب عصرهم مقتفين في ذلك أثر الفيثاغوريين وأفلاطون. ومن المعلوم أن الفيثاغوريين كانوا جماعة سرية إصلاحية حانقة على نظام الحكم اليوناني وأنهم حاولوا تغييره بخلق مذهب جديد ونظريات حديثة عن العالم ونشأته داعين إلى الزهد والتقوى. ومن المعلوم كذلك أن أفلاطون كان ساخطاً على حكومة أثينا. فلا الأرستقراطيون أرضوه لما يرتكبونه من ظلم وجور، ولا الديموقراطيون حققوا آماله للفوضى التي ضربت خيامها في أثينا؛ ولذلك حد في وضع منهج جديد للحكومة في كتابه الجمهورية وإن كان قد فشل حينما حاول تطبيقه عملياً

أما إخوان الصفاء فقد نالوا شيئاً من النجاح لأنهم من الاسماعيلية الباطنية. وهؤلاء قد استطاعوا أن يوجدوا لأنفسهم كياناً سياسياً مكن لهم في بعض الأرض ونشر الرعب في العالم الاسلامي. وسنرى فيما بعد أدلتنا على أنهم من الاسماعيلية بل إن رسائلهم هي دستور هذه الطائفة

من هم اخوان الصفاء؟ (1)

لقد أحاطت هذه الجماعة السرية نفسها بسياجين متين من الكتمان ويقولون في ذلك: «إننا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفاً من سطوة الملوك ذوي السلطة، ولا حذراً من شغب الجمهور من العوام ولكن صيانة لمواهب الله عز وجل لنا (2)». لذلك حار الناس قديماً وحديثاً في معرفة أسمائهم، ولولا ما نقله القفطي عن أبي حيان التوحيدي (3) في هذا الصدد وتعداده لبعض الأسماء المشهورة بينهم

(*) لم نجد بين أيدينا شيئاً مشبعاً عن إخوان الصفاء ودراسة رسائلهم ومدى تأثرهم بالمذاهب الفلسفية اليونانية ولذلك اعتمدنا أولا وقبل كل شيء على قراءة هذه الرسائل، واستنباط ما يمكن أن يفيدنا في هذه الدراسة المختصرة. ومن المراجع التي اعتمدنا عليها:

١ — تاريخ فلاسفة الاسلام لدى بور

٢ — رسالة صغيرة بمكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت للسيد عبد اللطيف الطيباوي

٣ — كتاب مفكري الاسلام لكرادي فو Carra de Vaux

٤ — مقدمتا الدكتور طه حسين بك وأحمد زكي باشا لرسائل إخوان الصفاء

٥ — كتاب الدعاية الاسلامية للسير توماس أرنولد وما ورد فيه خاصاً بطائفة الاسماعيلية

(١) أثرت هذه الجماعة اسم إخوان الصفاء لأنها كانت متحدة ممتزجة تسير نحو هدف واحد. وكان عندهم شيء من الزهد والتصوف. والتصوف يمت بسبب كبير إلى صفاء النفس، وقد تحدثوا كثيراً عن الصداقة وكيف يختار الصديق — أي الذي سيدخل معهم — أما صيغة الاسم فأقدم ما نعرفه عنها ما ورد في النقائض:

لعمرك ما آس طفيل بن مالك   بني عامر إذ ثابت الخيل تدعى
وودع إخوان الصفاء بقرزل   يمر كمريخ الوليد المفزع

ثم وردت هذه الصيغة في كتاب كليلة ودمنة في باب الحمامة المطوقة، وقد جاء في الرسائل ج ١ ص ٥٣ ما نصه (فاعتبر بحديث الحمامة المطوقة المذكورة في كتاب كليلة ودمنة)، وقد كان الاخوان معجبين بهذا الكتاب وعنه اقتبسوا كثيراً من الحكايات، فلا يستبعد أن يكون قد أوحى إليهم بهذه الصيغة. أما السبب الحقيقي فهو ما بين الاخوان من اتحاد وامتزاج وصفا وإتقان في الهدف (طيباوي)

(٢) رسائل ج ٤ ص ٢١٥. ولكن هذا ليس هو السبب، فقد كانوا يخافون السيف وأن يقعوا في أيدي الظالمين ــ رسائل ج ٤ ص ١٠١

(٣) هو أبو حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس الصوفي كان متفنناً في جميع العلوم يشبه الجاحظ في علمه وأدبه، ويقال له شيخ الصوفية وفيلسوف الادباء وأديب الفلاسفة وقال عنه ياقوت: (كان يتأله والناس على ثقة من دينه) وقد حكم المتأخرون بزندقته فطلبه الوزير المهلبي، وقد درس الفلسفة على عدي بن زيد، وأبي سليمان السجستاني محمد بن طاهر المنطقي، وتوفي في سنة ٣٨٠ هـ وقيل في سنة ٤٠٠ ببغداد فقيراً معدماً

لعمى علينا الأمر فقد ذكر في أثناء حديثه عن زيد بن رفاعة (أنه أقام بالبصرة طويلاً وصادق بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستى (ويعرف بالمقدسى) وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى وأبو أحمد المهرجانى و أبو الحسن العوفى وزيد بن رفاعة)

مظاهرهم وزمانهم :

كانت البصرة مركزهم الرئيسى وإن لم يذكر الاخوان شيئاً من ذلك فى رسائلهم بيد أن القفطى قال : (وقد أقام زيد بن رفاعة بالبصرة زماناً طويلاً وصادق بها جماعة لأصناف العلم ... الخ) ، وهناك ما يؤيد رأى القفطى وهو أن البصرة كانت منذ أسست عاصمة العلوم الاسلامية ومحط كثير من رجال الفقه ، فيها نشأ الحسن البصرى ورؤساء المعتزلة ، وفيها قام عبد الله بن ميمون بفتنة القرامطة أصل مذهب الاسماعيلية فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وفيها قام أبو الحسن الأشعرى يتنصل من الاعتزال ، وكانت فيها حلقات العلم من كل فن وفى مربدها ينشد الشعراء قصائدهم ؛ فلا عجب إذاً أن كانت البصرة مأوى إخوان الصفاء .

هـذا وقد كان للجماعة أنصار فى مختلف البلدان ولهم دعاة يبشرون بمذهبهم بطرق منظمة ؛ وفى هذا يقولون : (إن لنا إخواناً وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين فى البلاد) . ويظهر أنه كان فى بغداد جماعة أخرى على اتصال وثيق بإخوان الصفا وعنها يقول أبو حيـان التوحيدى فى كتابه المقابسات : (من أعضائها أبو سليمان محمد بن طاهر السجستانى ، وأبو زكريا الصيمرى ، والعروضى أبو محمد المقدسى ، ويحيى بن عدى ، وأبو إسحاق الصابى ، ومانى المجوسى) ، ويظهر أن أبا سليمان المنطقى السجستانى كان رئيس هذه الجماعة فكثيراً ما يقول أبو حيان (دارت فى مجلس أبى سليمان ... مناظرات) ، ويقول : (أملى علينا أبو سليمان)[١] . ويظهر أيضاً أن أمر هذه الجماعة الفلسفية كان على شاكلة أختها فى البصرة سرياً ؛ فقد ثبت أن أبا العلاء المعرى كان يختلف إلى هذه الجماعة بدار عبد السلام البصرى أيام الجمع حينما قدم بغداد وهم الذين سماهم إخوان الصفاء حين يقول :

كم بلدة فارقتهـا ومعاشر	يذرون من أسف على دموعا
وإذا أضاعتنى الخطوب فلن أرى	لوداد إخوان الصفاء مضيعا
خالت توديع الأصادق للنوى	فتى أودع خلى التوديعـا[٢]

(١) المقابسات ص ٥٧
(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء للدكتور طه حسين بك ص ١٥١

وقد كان لاحتكاك أبى العلاء مع تلك الجماعة وتعرفه على مختلف النظريات الفلسفية والدينية والصوفية الأثر الأكبر فى اتجاه أفكاره وفلسفته، فيقول الأستاذ ماكدونالد « يظهر أن أبا العلاء اتصل بفئة مثل إخوان الصفاء إن لم يكونوا هم أنفسهم »[١]

ومما تقدم نرى أن إخوان الصفاء كان مركزهم الرئيسى بالبصرة وكان لهم فرع قوى ببغداد ، وأنصار ودعاة فى مختلف البلدان والأمصار

أما الزمن الذى وجد فيه الاخوان فهو أواسط القرن الرابع الهجرى : ومن العسير تحديد السنة ، بيد أن هناك ما يرجح أن الرسائل ألفت فيما بين سنتى ٣٣٤ هـ و ٣٧٣ هـ ؛ لأن بدء ظهورهم كان على أثر سيطرة آل بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، ولم نسمع بهم قبل هذا التاريخ ، ومن الجائز أن تكون جماعتهم قد تأسست قبل ذلك وبقيت فى طى الكتمان ، ولم تتجرأ على إظهار الرسائل إلا بعد هذا التاريخ[٢]

نظام جماعتهم

كانت جماعة إخوان الصفاء تتكون من أربع طبقات : الأولى شبان يتراوح عمرهم بين خمس عشرة وثلاثين سنة ، وهم الذين يسمونهم فى رسائلهم بالاخوان الأبرار الرحماء . ويظهر أن الرسائل قد ألفت لهذه الطبقة لأن الخطاب فيها موجه دائماً إلى الأخ البار الرحيم . أما الطبقة الثانية فرجال بين الثلاثين والأربعين يتلقون الحكمة الدنيوية ، ويظهر أنه كان يعهد إليهم مراعاة الاخوان ومساعدتهم والتحقق عليهم ، وهم الذين يسمون فى الرسائل بالاخوان الأخيار الفضلاء . والطبقة الثالثة رجال بين الأربعين والخمسين من العمر وهم يعرفون الناموس الالهى، كما أنهم أصحاب الأمر والنهى والسلطة بين الاخوان ، وإليهم يعهد بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق والمداراة فى إصلاحه) ، وهم الذين يسمون بالاخوان الفضلاء الكرام . والطبقة الرابعة وهى مرتبة من يزيد على الستين سنة وهى أعلى المراتب فى نظامهم ومن يصل إليها يكون فوق الطبيعة والشريعة والناموس ، ويكون ذا كشف يستطيع به أن يشاهد (أحوال القيـامة من البعث والنشر والحساب والميزان)[٣]

والآن ! كيف يقبل المرشح لعضوية هذه الجماعة ؟ تجيبنا

(١) Muslim Theology ص ١٦٧ (٢) الطيباوى
(٣) رسائل ج ٤ ص ١١٩ — ١٢٠

الرسائل : (أنه ينبغي لإخواننا أيدهم الله حيث كانوا في البلاد إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقاً مجدداً أو أخاً مستأنفاً أن يعتبر أحواله ويتعرف أخباره ويجرب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أو لا يصلح . لأن في الناس أقواماً طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال ، وعاداتهم رديئة مفسدة ومذاهبهم مختلفة حائرة)(١)

وكانوا يتحرون عن الشخص الذي يريد الإنضمام إليهم كل التحرى ، ويحذرون إخوانهم من الاغترار بالظواهر : (واعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق ، ويدلس عليك بشبه الموافق ، ويظهر لك المحبة وخلافها في صدره . فانظر من تصحب وتعاشر ولا تغتر بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها . . . بل ينبغي أن تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشراء المماليك والأمتعة)(٢) . . . (لأن إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدنيا والدين جميعاً وهم أعز من الكبريت الأحمر ، وإذا وجدت منهم واحداً فتمسك به فإنه قرة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة وابذل له نفسك ومالك وافرش له جناحك وأودعه سرك وشاوره في أمرك وإن هفا هفوة فاغفر له)(٣)

وكانوا يحثون الإخوان على أن يعاون الغنى منهم الفقير والمتعلم الجاهل ويؤثرون أصدقاءهم على أنفسهم وأولادهم وأزواجهم ، لأن محبة هؤلاء لمصلحة دنيوية ، أما الإخوان الذين انضموا إليهم ، فيحبونهم لله

فإذا ما قبل العضو قرءوا عليه خطبة فيها دعوتهم وغايتهم : « وينبغي لإخواننا إذا حضروا المجلس ومعهم أخ مستجيب يستحب أن يقرءوا عليه هذه الخطبة : اعلموا — أيها الإخوان — أيدكم الله وإيانا بروح منه ، وهداكم للحق ، وجعلكم من أتباعه ، وسهل لكم سبيل الخير ، وأرشدكم إلى معرفة أهله ، وعصمكم من الشر ، وجنبكم صحبة أهله ، وحرسكم من المزور الشيطان ، ووقاكم جور السلطان ونكبات الزمان ونوائب الحدثان ، ووفقكم لقبول نصيحة الإخوان ، إنه ودود منان — اعلموا أن كل دولة لها وقت منه تبتدئ ، ولها غاية إليها ترتقى ، وحد إليه تنتهى ؛ وإذا بلغت أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها ، أخذت في الانحطاط والنقصان ، وبدأ في أهلها الخذلان ، واستأنف في الأخرى القوة والنشاط والانبساط والظهور ، وجعل كل يوم يقوى هذا ويزيد ، ويضعف ذلك وينقص ، إلى أن يضمحل الأول المتقدم ، ويتمكن الحادث المتأخر ... وقد ترون — أيها الإخوان — أنه قد تناهت قوة أهل الشر وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد التناهي في الزيادة إلا الانحطاط . واعلموا أن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان من أمة إلى أمة ، ومن أهل بيت إلى أهل بيت ، ومن أهل بلد إلى أهل بلد ... واعلموا أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من أقوام خيار فضلاء يجتمعون في بلد ، ويتفقون على رأى واحد ، ودين واحد ، ومذهب واحد ، ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون ، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً ، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم ، وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم(١)

وقد كان للجماعة دعاة ومبشرون يجتهدون في اختيار أعضاء جدد يضمونهم إلى صفوف الإخوان ، وقد كانوا يدربون تدريباً خاصاً على الدعاية : (واعلم أيها الأخ أيدك الله وإيانا بروح منه أن لنا إخواناً وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد ، فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والكتاب والعمال ، ومنهم طائفة من أولاد الأشراف والدهاقين والتجار والتناء(٢) ، ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحملة الدين ، ومنهم طائفة من أولاد الصناع والمتصرفين وأمناء الناس . وقد ندبنا لكل طائفة منهم أخاً من إخواننا ممن ارتضينا في بصيرته ومعارفه ينوب عنا في خدمتهم بإلقاء النصيحة إليهم بالرفق والرحمة . وقد اخترناك أيها الأخ البار الرحيم لمعاونتهم فامض على بركة الله وحسن توفيقه إلى أخ من إخواننا ، وتوصل إليه بالرفق على خلوة وفراغ من مجلسه وطيبة من نفسه فاقرأ عليه منا التحية والسلام ، وبشره بما يسره من نصيحة الإخوان ، وعرفه شدة شوقنا إلى إخائه ومودته وولايته ، ثم اقرأ عليه هذه الخطبة (المتقدمة الذكر) وعرفه معانيها وفهمه مغزاها ومقصدها(٣) ... (فإن وقعت هذه التذكرة منه مكانها من القبول وسمت نفسه إلى ما أشرنا إليه فذلك

(١) رسائل ج ٤ ص ١٠٧
(٢) الرسائل ج ٤ ص ١٠٨ (٣) الرسائل ج ٤ ص ١٠٩

(١) ج ٤ ص ٢٣٥
(٢) الدهاقين جمع دهقان بكسر الدال وضمها وهو حاكم الاقليم المتصرف فارسية معربة ، والتناء بالكسر جمع تانئ من تنأ بالمكان أى أقام به ومعناه المرابط
(٣) الرسائل ج ٤ ص ٢٣٦

الصحيفة المثالية

لرجل الصحافة « ويكهام استيد »

بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

واجب الصحافة الرشيدة أن تستوعب أمر هذه الحال المفككة الأوصال وتنعم النظر في سبب تلك الأدواء الاجتماعية وعلة هذا الضلال ، ثم تتنزل على ضحاياه لتأخذ بيدهم وتأسو جراحهم وتنهض بهم من غير أن تبتعد عنهم ، أو ترتفع في شرعتها عن مستواهم . وهنا تهيأ الفرصة للصحفي الذي تأصل في نفسه مثل أعلى وتولى زمامه قصد نبيل أن ينشئ للناس صحيفة رشيدة . وقد أخنى مثله ونبالة قصده في نفسه واخترتها لغرضه حتى لا يسخر منه الحق ويضعوا من كفايته قبل أن يتمكن من تحقيق لبانته .

أما عن أمر صحيفتي المثالية التي أحلم بها وأصبو إليها فسوف تطالع الناس وهي تستوعب مصادر الأدواء الاجتماعية ومواردها وتتقصى أسباب الضلال والحيرة الماثلين في الحياة الحاضرة ، وهي وإن تصدر في ذلك عن إيمان مكين لا يقل شأنه على أية حال عن إيمان الصحف الحاضرة بواجبها في تقصي تلك العلل ؛ إلا أنها ستضع للحق أعلاماً لا شبهة فيها فتعالج تلك الأدواء باعتبارها ضلالاً وحيرة لا أشياء أخرى تعدد حقيقتها وتتجاوز قدرها .

وسوف تتلمس الحقيقة الماثلة وراء الظواهر ، وتنتهي إليها ، وتظفر بها ثم تذيعها على الناس في جرأة وأمانة فلا تبقى من أمرها على شيء كاذب ، ولا تصانع الشعب فيما انعقد إجماعه عليه فتحترم ما جرى عليه العرف فيه لمجرد أنه قد صار للناس عرفاً . وهي إذ تقر لذي الفضل بفضله ، وتقدر للمحسن أحسانه ، وتوجه التكريم إلى الوجهة التي يجب أن يتجه إليها ، ولا تقر له شرعة غير شرعة الحق والعدل ، ستدعو التصنع تصنعاً وتسمى الخداع خداعاً بكامل ما انطوى عليه اسمهما من لفظ ومعنى .

وسوف لا تهيب شيئاً كائناً ما كان أو تخشى في الحق لومة لائم . وإذا هي « لا تتحرج » في معالجتها للموضوعات المؤلمة أو المزعجة ، وإذا هي تسجل على نفسها خطأها إذا قدرلها أن تخطئ ، والزلل لا عاصم منه فالعصمة لله وحده . وإذا هي لا تقبل من ضروب الإعلان إلا ما يتحقق لها صدق عبارته ومادته وأمانة ذويه . وعندئذ يصبح قبولها للاعلان ضماناً أدبياً يصون مصالح القراء ويكفل حقوق الناشرين على السواء . وإذا هي تتأبى أن تنشر للتجار الشهادات المتعلقة بصافي مبيعاتهم وتحتقر الطواف (بعينات) البضائع لتبيعها لحساب عملائها ؛ وإذا هي تتأبى على هؤلاء العملاء وقد غمرها شعور فياض بالكرامة والعزة أن تهبهم شيئاً من الامتيازات المجانية أو أية رخص أخرى ؛ وإذا هي تذيع على الناس في قوائم سوداء أسماء الناشرين وشركات الإعلانات ثم تثيرها عليهم حرباً جبارة لا هوادة فيها ولا رحمة تذيع على الناس ما ينتهي إليها من خبيء أمرهم ومستور حيلهم إذا ما حاولوا في نهجها العادل وقصدها الشريف أن يعملوا ما وسعهم من جاه وثروة للقضاء عليها

وسوف تنفق شطراً كبيراً من رأسمالها في كسب ثقة العقول الشابة الطامحة الذين سيتعلمون عاجلاً كيف يثقون برأيها ويقنعون بقضائها ويقدرون نصحها ؛ وسوف تكون صحيفة مجاهدة يلمس الناس جهادها وضاحاً من أول عمود من أعمدة « أقلام تحريرها » إلى آخر عمود فيها . وسوف لا ترتبط بأية مصالح مهما كان شأنها ما لم تتفق ومثلها الأعلى . ولا تعبأ بعداء أو خصومة مهما كان مصدرها ، بل تسكون إلى ذلك كله مؤمنة كل الإيمان بما انتهت

هو الذي تريده ، وإن توقف وقال ما علامة ما تقولون ، وما تصديق ما تزعمون من الرأي والحديث ؟ فتقول عندنا دلائل واضحة ، فإن أراد أخونا الفاضل الكريم فليبعث إلينا ثقة من ثقاته وأميناً من أمنائه ، ومن يشا كلنا في العلوم والمعارف ليتضح له حقيقة ما قلنا[١]

ويظهر أن هؤلاء الذين يوجه إليهم الأخ البار الرحيم والمنتشرين في أنحاء الأرض كانت ميولهم وأغراضهم السياسية كشبه ميول إخوان الصفاء وأغراضهم ، ولم يكونوا قد انضموا إليهم بعد ، أو لم يعلموا بوجودهم ... (واعلم أن من إخواننا وأهل شيعتنا طائفة أخرى بوجودنا شاكون ، وفي بقائنا متحيرون فيما يعتقدون من موالاتنا ، وطائفة أخرى ببقائنا موقنون ، لكنهم غافلون عن أمرنا غير عارفين بأسرارنا ، وكلهم منتظرون لظهور أمرنا ، مستعجلون لمجيء أيامنا ، مشتهون نصرة حزبنا[٢])

(بيروت — يتبع) عمر الدسوقي

مدير كلية المقاصد الاسلامية

(١) الرسائل ج ٤ ص ٢٣٨

(٢) ج ٤ ص ١٩٨

إليه من منزلة لا يسع كائناً ما كان أن يتجاهلها .

وسوف يكون من ديدن صحيفتى أن تفرغ وسعها فى الحصول على الأخبار ، وتعنى بإذاعتها مبوبة منظمة ، فتضع أهم الأخبار فى صفحتها الأمامية كما يجب أن تكون ، وسوف لا تتحرج أن تطبع عدة أعمدة متوالية « لقصة » واحدة مسلسلة ، فهى ستنظر دائماً باحتقار لتلك الحيل المضيعة للوقت من التنقل بالقراء من صفحة لأخرى عن طريق وضع بداءات « القصص » المختلف على القمة من كل عمود

وسوف لا تخدع قراءها بأقحام عنوان لا تدعو الحاجة إليه ، أو ابتكار لا غنية فيه ؛ واستعمال حروف الطبع المختلفة النوع والحجم استعمالاً طيباً دقيقاً من شأنه أن يهيئ للقراء الإلمام بما سطر فى الصحيفة من غير أن يضيع عليهم شيئاً من الموضوع .

وسوف تتقدم صحيفتى « بالأخبار » الصالحة النشر فى وضوح تام وصراحة مطلقة ، سواء اتفقت هذه الأخبار مع « سياستها » أو لم تتفق ، فستكون سياستها بحيث لا تعنى إلا بالحقائق وحدها فلا تخفف من أمر الأخبار أو تبالغ فيها ، ولا تعلق عليها أو تؤولها لتتفق مع « سياستها »

وسوف تفسر الشك لصالح النشر فى الحالات التى يتردد الصحفى فيها ، فيرى أنه قد يكون من صواب الرأى أن يمسك عن النشر

وسوف لا تؤيد أية حكومة بالغة من السلطان والسطوة ما بلغت ، أو تزكى أى سياسى كائناً من كان إلا لما تقتنع بصدقه من الأسباب العامة التى لا تخفيها عن الجماهير .

وسوف تكون خادمة الشعب وحده ، ولصالح الشعب فقط ، سوف تعترف بواجب الرعية نحو الحكومة ، وتقر ولاء الشعب لأولياء أموره ؛ وسوف لا تقود الشعب قيادة عمياء من طريق الزلفى إليه ، فإذا هى تعامل جمهوراً وهمياً زاعمة أن القراء لا قبل لهم باحتمال القول الصريح والحقائق المرة ؛ إذ من واجب الخادم الأمين أن يقول الحق لسيده .

وسوف تكون صحيفتى صحيفة قومية ، لا صحيفة تعنى بالروابط الجنسية والفوارق العنصرية ؛ وسوف تطبع بطابع عام من سياسة الرجال الأحرار لا بطابع خاص بحزب الأحرار .

وسوف تجاهد فى سبيل السلام الحقيقى من غير أن تنشده على ضوء النظريات السلمية التى تتجاوز طبائع الناس وطبيعة الحياة . فتكشف الستار عن الأمور الجوهرية وتفصح عن المسائل التى تقتضيها ضرورة الحياة ، تلك المسائل التى يكون من حق الأمم والرجال أن يحاربوا من أجلها حرباً لها ما يبررها ويزكيها ، أو يموتوا فى سبيلها موتاً شريفاً نبيلاً إن ضاقت بهم السبل ، ولم يتيسر لهم طريق آخر يدعمون به حجتهم من الاحتفاظ بمقومات حياتهم ؛ وسوف لا تقع صحيفتى أبداً فى ذلك الخطأ الفاجع فيخيل لها أن اجتناب الاصطدام بين الأمم ، وأن التوفيق بين المذاهب المتعارضة للشعوب المختلفة أمر ميسور ، وهو خطأ اقترفوه عند ما حسبوا أن اجتناب الحرب أمر ممكن ومرغوب فيه لذاته .

وسوف تكافح صحيفتى بكل ما وسعها من قوة ذلك النهج العدائى الأخرق المائل فيما يثور بين الأمم من جدل . ولكنها إلى ذلك ستذكر دائماً أن قلوب الرجال سوف لا تنصرف عن الحرب وما تنطوى عليه من روح الإقدام والمخاطرة انصرافاً أبدياً ، مالم يقدر للسلام أن يطبع ما يكرسون له أنفسهم ويضحون فى سبيله بأرواحهم بطابع يوجههم إلى أشياء أجل من الحرب شأناً وأنبل منها غاية

وسوف تعمل صحيفتى على أن تثبت قواعد المودة بين الأمم ، وتدأب على توثيق العلائق بين الشعوب ، لا لبغية اجتناب الحرب فحسب ، بل لتستعين بذلك فى الدفاع عن الحرية الشخصية والحقوق الإنسانية ، ولتشق طريقها إلى إنشاء التعاون الدولى . وسوف لا يقل نصيبها فى ذلك عن نصيبها فيما ستضطلع به من تجنيد جميع طبقات الشعب فيما يتصل بالشئون القومية والاجتماعية ، بغية النهوض بما يتطلبه صرح الجماعة من إنشاء وتجديد

فهل يتاح لصحيفة كهذه ، أحكم صنعها من الناحية الفنية ، وظفرت بما طمعت فيه من الثقة والتقدير ، وسارعت بإذاعة الأخبار فى إبانة وصدق ، ووجهت ضرباتها القوية بحكمة وحزم غير آبهة بسلطان أو حافلة بمال ، ثم تهيأ لها حظ موفور من القوة والنشاط ومجالدة الأعداء ، أقول : هل يتيسر لصحيفة كهذه أن تطمع فى انتشار واسع يجعلها تتحكم — ولا أقول تلتمس — فى دخل كاف من أجور الإعلانات يهيئ لها موازنة ميزانيتها ؟ !

أغلب ظنى أنه سوف يتاح لها ذلك كله متى ما توفر لها من الثروة فى أوائل نشأتها « ما يثبت أقدامها » فى ميدان الاختبار ، إلى أن يتهيأ لها أن تكسب ثقة شعبها

وقد تهيأ الفرصة يوماً لرجل عبقرى توفرت فيه مؤهلاته وكفايته أن يخرج للناس صحيفة من هذا القبيل . وآنئذ سوف

مع الشمس الغاربة

للأستاذ م . دراج

واعجباً لهذا الفكر المضطرب ! كلما تهيأت لأواجه موضوعاً خذلني وارتد القلم يترنح من عنف الصدمة ، تاركا وراءه خطوطاً مائلة منكسرة متعرجة — كتلك التي تجرها يد طفل عابث — هي كل ما أغنمه من أسلاب الفكر المهزوم !... حاولت ذلك مرة في الإسكندرية ، وأخرى في دمياط ، وثالثة في المحلة الكبرى ، ومرة أخيرة هنا في القاهرة ، ومع ذلك فشلت ، وكان فشلي محزناً يدعو إلى الإشفاق . لم أدر لذلك سبباً ، فأنا حين أكتب لا أحتاج إلى جو خاص ، وليس ثمة ضجيج يمنعني عن الكتابة أو سكون يعينني عليها . ذلك لأني لا أغتصب الفكر شيئاً إلا إذا أحسست رغبة قوية عميقة حارة تدفعني إلى الإذعان له

وها أنذا أعود مرة أخرى إلى الإسكندرية لأحاول من جديد إخضاع الفكرة العصية المتمردة لعلها تلين وترضى . . . فهل من سبب لهذه الظاهرة ؛ أجيبوا يا أصحاب الخبرة والتجارب ؟

كنت أفكر في هذه المرحلة التاريخية التي كان من حظي أن أعيش فيها لأشاهد أعظم انفجار عالمي يوشك أن يزلزل رسوم الحياة، بما فيها من نظم وأخلاق ، وعادات وأفكار ، تتصل كلها بصميم الحضارة — حضارة القرن العشرين — تلك التي كلما فشلت في رسالتها، قذفت بالبشرية في جحيم الحرب باسم الحرية ، ذلك الوهم المنحوس .

وكان هذا التفكير يجلو لعيني صوراً غامضة ، تسطع فجأة ، ويتألق نورها ، فأرى على وميضه بلاداً غنية التربة ، تنتج من الغلال والحبوب فوق حاجتها فلا ترى مانعاً من أن تلقي بالفائض في البحر ، كلما وجدت في هذا العمل الشائن ما يحفظ للسلعة سعرها العالي المناسب . . . فهذه كميات عظيمة من الأذرة تروح « علفاً » للخيل ، وتلك مقادير هائلة من ثمار « الموز » تبتلعها الأمواج ، وأخرى من البن تلقى بين النيران المتأججة . ثم أشاهد أناساً يسكنون الأصقاع الشمالية ينتفضون من الجوع والبرد ، يتضورون بين الأدغال طلباً للخبز أو الدفء فلا يكادون يبلغونه إلا على سنان المخاطر . . . ثم أجدني قد انتقلت إلى سوق أخرى تزدحم فيها المصانع ، وتتكدس الآلات والمنتجات ، ويكثر التعطل والجوع والحرمان !! وتمر الأقطار أمام عيني مراً سريعاً ، وكأني أشاهدها على الشاشة البيضاء . فهذه رقاع من الأرض ضيقة الشقة قليلة الموارد صخرية التربة يتمتع أهلوها بأطايب الحضارة وملذاتها ؛ وأخرى بلاد غنية تدر الذهب ، وتخصب الشهد ، ومع ذلك فهي فقيرة يعيش أهلوها جياعاً حفاة شبه عراة !! وثمة شعوب تابعة ومتبوعة ، صور عجيبة متناقضة تنتظم سلك الحضارة ، ومع ذلك يأسفون لوقوع الحرب ! ويندبون حظ الحضارة الآفلة !! ...

هذه هي الحياة كما رأيتها على وميض الفكر الواهي : خداع وطمع ، سيادة واستعباد ، ترف وحرمان ، ضحكات ودموع ؛ وحشية عارية تستتر وراء الفكرة الخبيثة التي يسمونها بالحرية ! فأنتفع من هذا كله بشيء واحد ، برعت المدنية في إبداعه من حيث أخفقت في كل شيء . ذلك هو المظهر الخلاب على الجوهر الرخيص المبتذل . وكأن الذين فتنتهم هذه المدنية نسوا أن الظاهر تعيش حيناً ثم يعروها التلف والفناء ، أما الجوهر فيبقى دائماً كما هو . . .

كانت الشمس تحتضر عند حافة الأفق البعيد ، لما أشرقت أفكاري بهذه الصورة الغاربة . وكنت قد أسلمت نفسي لصديق أتبع خطواته كطفل وديع مطيع ، لا أعترض ولا أستفسر عن شيء ، حتى استقر بنا المطاف على متكأ عند شاطئ البحر نشاهد هذا الصراع العنيف بين عناصر الطبيعة ، وتتابع تطوراته باهتمام بالغ . فرأينا الشمس الغاربة مكفهرة الوجه ، تسيل منها العبرات شعاعاً مخنوقاً يتساقط على مياه البحر ، فيصبغها بلونه الأرجواني الحزين . وهناك في الجانب الآخر من الأفق ، كانت طلائع الليل الزاحف تتواثب هنا وهناك ملقية ظلالها الكئيبة على الأحياء ،

نرى من نعمرهم الآن بمجاملاتنا من أصحاب الإعلان ومن المساهمين في الصحيفة الذين لا يأبهون إلا لما يخلص إلى جيوبهم من ربح وممن يتجرون بالتداول الصحفي ، ولو كان تداولاً زائفاً مصطنعاً

وقد سقط في أيديهم وتملكهم العجب مما تهيأ للصحفي المثالي من نجاح عظيم ، وإلى أن يتاح لي تحقيق هذه الآمال المنشودة ستظل صحيفتي المثالية وهي في مملكة المثل الأعلى من عالم الخيال . وستظل الصحافة البريطانية — إذا قدر لها حقاً ألا تستعبد للحكام المستبدين — وهي تسير متثاقلة على نفسها في طريقها الذي تسلكه راحلة حيث لا تنفك بعيدة عن قمة المجد الصحفي التي تتوق لها نفسي ويخفق بحبها قلب كل صحفي أصيل

(المنصورة) [illegible]

والبحر واجم يتلقى أنفاس الشمس اللاهثة بحنان وصمت غريبين. أما الطيور فكانت جازعة، كأم روعها الخطر على وليدها، فهي تروح وتغدو مولولة صارخة تستنجد ولا مغيث! حتى إذا هجم الليل هجومه الأخير، ارتعش النور، واضطربت الشمس، ثم أسلمت نفسها للمغيب...

سقطت الشمس الغاربة في هوة المغيب، فأحسست برجة عنيفة تسلبني اليقظة، وتتركني إنساناً بلا وعي. كنت - في الحقيقة - جسما ملقى على الجدار الصخرى القائم عند التقاء اليابسة بالبحر، لا يحس ولا يتأثر بما حوله، فإن بدت منه التفاتة إلى هنا أو هناك، فهي بلا شك نظرات لا معنى لها، كتلك التي تصدر عادة من ذوى الأفكار الشاردة. آه، لقد عرفت الآن أن هذه الرجة التي أصابتني، لم تكن إلا وثبة من أفكاري لحقت بالشمس الغاربة في دنيا المغيب

أين يذهب هذا النور؟ ولماذا تبدو عليه دلائل الأعياء كلما غرب أو أشرق؟ هكذا كانت توسوس نفسي! فتبعت آخر شعاع ينفلت من يد الظلام، وانسللت وراءه أتجسس في دنيا المغيب عن أسرار هذا الكون العجيب. سمعت همسا يدور حول جريحة تنزف الدماء منها بغزارة، وليس في وسع أحد أن ينقذها من الخطر هم يقولون: إنها ظالمة لنفسها، وليس ثم من يستطيع علاجها إذا كانت أظافرها هي سبب بلائها! وفجأة، رأيت لهيباً يندلع في الجو، وسحباً داكنة تنعقد في سمائه، ومياهاً باردة ترتطم بوجهي، فأصحو من غشيتي لأسمع زئير البحر الهائج، وقد تدافعت أمواجه وتلاطمت، وقذفت وجهي برشاشها المتطاير. ثم أسمع دوياً هائلاً يهز الأرض هزاً عنيفاً يعقبه طلقات سريعة متتابعة تندفع إلى السماء مزمجرة صاخبة، فأطلع بوجهي إلى حيث استقرت في كبد الظلمة فأرى خطوطاً من النور تمتد وتتطاول، ثم تتحرك في سرعة خاطفة، والأشباح تهوم في الفضاء، والريح الباردة تعصف بشدة، فأدرك في الحال من تكون تلك الجريحة التي كانوا يتهامسون عنها في دنيا المغيب! وأعلم أنها «الإنسانية» التي طعنت نفسها بسلاح الطمع وأضرمت في جسمها نار الحرب!

أما النور الذي يبدو عليه الإعياء كلما غرب أو أشرق! فهو الحرية التي يتعلل بها المجرمون في دنيا الوحشية والطغيان!

وهنا هتف صديق قائلاً: لقد غربت الشمس، وأسدل الليل ستاره الأخير! فزدت، وانقضت الحرب بصواعقها، وما ندري متى ترفع نقمتها عن العالمين.

م. د. ع

٢٢ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزى ادورد وليم لين

للأستاذ عدلى طاهر نور

تابع الفصل السادس — عاداتهم

لا يصعب على من اختلط بمجتمع الرجال المسلمين في القاهرة ـ كما قد يتصور الأجنبي ـ أن ينال من غير زواج أدق المعلومات الكثيرة عن شئون النساء وعاداتهن ؛ فأغلب رجال الطبقة الوسطى المتزوجين والقليل من الطبقة العليا يتحدثون طوعاً عن مسائل الحريم إلى من يصرح لهم باستحسانه آراءهم في الأخلاق

ولا تعتبر الزوجة ـ على العموم ـ معتقلة في الحريم ، لأنها تكاد تكون مطلقة الإرادة في الخروج ، وزيارة الصديقات ، واستقبال الضيفات ؛ ولا جرم أنه ليس للجوارى هذا الاختيار إذ هن سواء خضعن للزوجة كما يخضعن للسيد ، أو للسيد فقط ، تحت سلطة لا حد لها تقريباً . ومن أهم ما يرى إليه رب الدار بتخصيص حريم منفصل أن يتلافى رؤية الخدم وغيرهم من الرجال لنسائه دون نقاب كما بنص الدين . وتبين الآية التالية أنه يجب على المسلمة أن تخفى عن الرجال ، خلا بعض الأقارب وغيرهم ، ما يلفتهم إلى شخصها أو زينتها : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ...[1]) ؛ ويشير النص الأخير إلى عادة رن (الخلخال)

(١) سورة النور الآية ٣١

الذى كان يستعمله نساء العرب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا تزال المصريات يتحلين به[1]

ويجب على أن أذكر هنا تعليقين لمفسرين فاضلين[2] مدرجين في ترجمة سيل Sale للقرآن توضيحاً للآية السابقة ، حتى لا تؤديا إلى فهم العادات المتأخرة الخاصة بدخول الحريم أو عدمه فهما خطأ . والتعليق الأول خاص بكلمة (أو نسائهن) وقد شرحت كما يلى : « أى المسلمات ، ويرى البعض أن سفور المؤمنة أمام الكافرة مخالف للشرع أو للحشمة على الأقل ، إذ لن تعف الكافرة عن وصفها للرجال . ويفترض الآخرون أن هذا الاستثناء يشمل النساء جميعهن على العموم ، وتختلف آراء العلماء في هذا الموضوع » . ولا يعتبر الآن — في مصر وفى كل بلد إسلامى آخر على ما أعتقد — دخول امرأة من أى طبقة أو من أى دين حريم المسلم أمراً مخالفاً

ويتعلق الشرح الآخر بجملة (ما ملكت أيمانهن) : « يشمل هـذا الاستثناء جميع الأرقاء من الجنسين ، وكما يرى البعض الخدم غير الأرقاء مثـل هؤلاء المنتمين إلى شعب آخر . ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أهدى مرة إلى ابنته فاطمة عبداً ، وعند ما أحضره أمامها لم تـكن متدثرة بثوب ضاف ، فـكان لا بد أن تترك رأسها أو قدمها مكشوفاً ؛ فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم حينما لحظ ارتباكها : أن لا تهتم ، لأنها ليست في حضرة أحد غير أبيها وعبدها » . وقد يكون الحال كذلك اليوم عند عرب الصحراء ، ولكن لم يبلغنى قط أنه يسمح للعبد البالغ في مصر أن يرى حريم رجل فاضل سواء كان العبد في خدمة الحريم أولا . وقد أكد لى أنه لا يسمح بذلك أبداً . وقد يكون سبب منح القرآن عبد المرأة هذا الامتياز استحالة الزواج به ما دام عبداً لها ؛ ولكن ليس هذا موجباً لمنحه حق الدخول إلى الحريم في مثل هذا المجتمع . ومما يستحق الاعتبار أن الآية السابقة لم تمنع الأعمام حق رؤية بنات الأخ أو الأخت مكشوفات الوجه . ويرى البعض أنهم ليسوا

(١) أنظر إشعيا ١٦/٣ « وقال الرب : من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات في مشيهن ويخشخشن بأرجلهن

(٢) والتعليقان للبيضاوى وجلال الدين — أنظر ترجمة سيل Sale للقرآن ص ٢٦٦

لذلك فى حالة عوز شديد . وهذا التعرض يبدو طبعاً على العكس تماماً لأولئك اللاتى يأملن تحسين حالتهن . ويستطيع الرجل أن يطلق زوجه مرة أو مرتين ويردها إليـه فى كل مرة من غير حفل . ولـكنه لا يستطيع أن يردها شرعاً فى المرة الثالثة قبل أن تتزوج رجلاً آخر وتطلق منه ، وهذا بعينه نتيجة الطلاق ثلاثاً المعبر عنه فى جملة واحدة : «أنت طالقة بالثلاثة» . ولـكن قد يتفق الرجل والمرأة على مخالفة الشرع ، أو ينكر الرجل أنه أوقع يمين الطلاق . وتجد المرأة فى الحالة الأخيرة صعوبة كبيرة فى تنفيذ الطلاق قانوناً إذا أرادت ذلك

وأذكر لتوضيح هذا الموضوع قضية أدخل فيها أحد معارفى شاهداً على يمين الطلاق . فقد كان جالساً فى مقهى مع رجلين آخرين كان أحدهما قد غضب على امرأته لشىء قالته أو فعلته . وأرسل هذا بعد حديث قصير فى هذا الأمر يدعو زوجه التى أوقع عليها يمين الطلاق ثلاثاً وأشهد زميليه على ذلك . ولـكنه سرعان ما ندم على فعله وأراد أن يعيد مطلقته ، فرفضت العودة إليه ولجأت إلى (شرع الله) فقدمت القضية إلى المحكمة وقررت المدعية أن المدعى عليه أوقع عليها الطلاق ثلاثاً ويريد الآن ردها إليه لتعيش معه كزوجة على خلاف الشرع . وأنـكر المدعى عليه الطلاق ؛ فسأل القاضى المدعية : « هل لديك شهود » فأجابته « عندى شاهدان » . وكانا هما الرجلين اللذين شاهدا الحادث فى المقهى . فقررا أن المدعى عليه طلق امرأته ثلاثاً فى حضرتهما . فأكد المدعى عليه أن التى طلقها فى المقهى كانت امرأة أخرى ، ولـكن المدعية نفت وجود زوجة أخرى . فلفت القاضى نظرها إلى استحالة معرفتها ذلك ، وسأل الشاهدين عن اسم المرأة التى طلقها الرجل أثناء وجودهما ، فأجابا أنهما يجهلان اسمها . فطلب منهما أن يقسما إذا استطاعا أن المدعية هى المرأة المطلقة أمامهما . فأجابا أنهما لا يستطيعان ذلك لأنهما لم يريا المرأة سافرة أبداً . فرأى القاضى إزاء ذلك أن يرفض الدعوى . وأجبرت المرأة على العودة إلى منزل زوجها . كانت تستطيع أن تطلب حضور المرأة التى اعترف الرجل بتطليقها فى المقهى ، ولـكن كان من السهل أن يحضر امرأة تقوم بالدور المطلوب ما دام لا يطلب منها وثيقة الزواج . وفى مصر يعقد الزواج دائماً من غير كتابة ، ومن غير شهادة أحياناً .

عدلى طاهر نور

بنى وطنى ...

لشاعر العراق الأستاذ معروف الرصافى

بنى وطنى ماذا أُؤمِّل بعد ما   تفشَّت سعاياتٌ لكم بالتجسسِ
أقول لمن قد لامنى فى تشدُّدى   على كل تدليسٍ أنى من مدلَّس
لو اسودَّ وجه المرء من قبح فعلهِ   لما كنت تلقى عندنا غير مُدفِس
ولو نال بالإخلاص مثرٍ ثراءهُ   لما كنت تلقى بيننا غير مفلس
نحاول عزًّا بابتذال نفوسنا   فنشرى خسيساً بالثمين المقدس
ومن جهلنا استكراهُنا فى معاشنا   شقاءً نزيهاً للنعـــيم المدنَّس
سأرحل عنكم للذى قد أقامنى   على موحشٍ من أمركم غير مؤنس
أبَيْتُ لنفسى أن تحلَّ مكانةً   من العيش إلا فوق عز مؤسس
ولو أنَّ هذا الصبح كان انبلاجُهُ   بغير شروق الشمس لم يتنفَّس
فلا أبتغى بالذل عيشاً مرفَّها   ولو عشت فى العُزَّى بفول مُدمَّس
وما أنا كابن العبد إذ عانق الردى   لِجَدْوَى أبَتْهَا رغبة المتلمِّس
إذا ابتسمت لى عفتى ونزاهتى   فلست أبالى بالزمان المعبِّس
أقابل أخلاق الرجال بمثلها   وأعرف منهم وجهها بالتفرس
فأعنو لمن يعنو وأقسو لمن قسا   وأظهر كالغطريس للمتغطرس
ولست أجازِى المعتدى باعتدائه   ولـكن بصفح القادر المتحمس
وما أنا من أهل الدعارة والخنا   ولا من أولى حمل السلاح المسدَّس
ولـكنَّ لى فيكم يراعاً إذا شدا   أتاكم بكافٍ من عُلاه ومُخرِس
وما خالق الأكوان إلا مهندس   وإن جل عن تعريفه بالمهندس
تجـلَّى على أكوانه بصفاته   وأغلس فيهم كُنهُهُ كل مُغلَس
وأقبسهم نوراً شديداً جلاؤه   فساروا به كالعُمْى فى كل حِندس
وألبسهم حمر الغرائز فاغتنوا   بحمرتها عن كل ثوب مورَّس
وما مُقبِس عند النهى غير قابس   ولا لابس عند النهى غير مُلبس
فأيَّان جال الطرف لم ير غيره   إذا كان فى ألحاظه غير مُبلِس
حقيقة مخلوقاته لم تكن سوى   حقيقته دع عنك حدس المحدِّس
ألا إننى للكائنات موحِّد   ولو أرغمت كل المذاهب معطسى

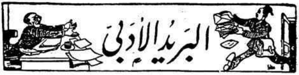
معروف الرصافى

الأسطول البريطانى

للأستاذ عبد اللطيف النشار

تخيَّلها ولم يرها جرير   وزان خياله لفظٌ نضيد
فقال كأنه يصف الجوارى   ونبصرهن نحن فما نزيد
(وسُخِّرت الجبالُ وكنَّ خُرساً   يُقطِّعُ من مناكبها الحديد)
ترى أى السفائن كان يعنى   ألم يطلع على الدنيا جديد ؟
وهل شهد القدامى ما شهدنا   وشق بحارَهم جبل صلود
تمنى شاعر ضخمَ الأمانى   فحققت الدرارى ما يريد
وما كنا لنشهد ما نراه   إذا حُرِمت من الشعر الجدود
حياة الحالمين بلا قيود   فمن أحلامهم كان الجديد
وهل يعنى الطوافرَ أم سواها   جريرٌ والقصيد هو القصيد
يقول وقوله أبداً غريب :   أما حدَّت منازعه الحدود ؟
(تصيَّدن القلوب بنبل جن   ونرمى بعضهن فما نصيد)
هل امتدت نُبوءته إلينا   لعمرى إنه نظرٌ بعيـــد
فقال وليل مصر كما نراه   وقد شملت إضاءتها القيود
(نظرنا نار جعدة هل نراها   أبُعدٌ غال ضوءك أم همود)

أطلتُ أطلتُ لا أعنى جريراً   وضلَّل منطقى فكرٌ شرود
أرى الأسطول أم أهرام مصر   ولـكن أمُّ (خفرعه) ولود
أرى الأهرامَ فوق الماء تجرى   لماذا ذلك العدد العديد
وعند ذويه لو شاءوا مزيد   لعمرى إنه شعب سعيد
أرى الأسطول عند جدار دارى   ألا شعرٌ لدىَّ ؟ ألا نشيد
وأبغضُ ما تكون الحرب عندى   ولـكن كيف عن وطنى أذود
أحب سكينة الراضى بحال   فهل ترضى عن الراضي الحقود
فأفٍ للسكينة حيث كانت   هى الذلُّ المهين، هى الجمود
على الكأس السلام فقد تولت   محبتها وقد صدق الوعيد
وأنظر لا أرى إلا سفيناً   وإلا البحر تحميه الأسود
ضراغم من أرامم أم جنود   وطارفهم أجل أم التليد
وما الماضى بمنسىٍّ ولـكن   مضى الماضى وليس له معيد
ونحن ونبتنا البردى أدرى   بما تعنى المواثق والعهود



قرار لجنة كبار العلماء وبرنامج الإصلاح

يعرف القراء أن جماعة كبار العلماء قد قررت فى جلستها الأخيرة تأليف لجنة برياسة حضرة صاحب الفضيلة المفتى الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم لبحث المقترحات الهامة التى رفعت إليها من بعض حضرات أعضائها

وقد عقدت اللجنة عدة جلسات لهـذا الغرض ، وتلقت فى إحدى هذه الجلسات كتاباً مرسلاً إلى فضيلة الأستاذ الأكبر من الأستاذ الشيخ حسن البنا يقترح أن تقوم جماعة كبار العلماء بإنشاء معجم جامع للحديث يضم شتات كل الأحاديث المحتج بها الخ

وبعد بحث هذه المقترحات بما فيها هذا المقترح الأخير رأت اللجنة أن تقوم جماعة كبار العلماء بما يأتى :

أولاً :

(ا) إيضاح ما قد يخفى من أصول الدين

(ب) بيان ما هو بدعة وما ليس بدعة

(ج) بيان أحكام الشريعة فى المعاملات التى جدت وتجد .

(د) الإفتاء فيما يرى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أخذ رأى جماعة كبار العلماء فيه

ثانياً :

(ا) وضع مؤلفين يجمع أحدهما تفسير القرآن تفسيراً سهل التناول يوافق أصول الدين وقواعد اللغة العربية ، مع التنبيه على ما فى كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات والآراء التى لا تتفق وأصول الدين العامة وقواعد اللغة ؛ ويجمع الآخر الأحاديث التى تصلح للاحتجاج والتى لا تصلح مع بيان درجاتها المختلفة .

(ب) التنقيب عن الكتب الإسلامية التى يعظم نفعها فى مختلف العلوم ، والعمل على إخراجها إخراجاً صحيحاً متقناً

ثالثاً : إنشاء مكتب علمى يعهد إليه بتنفيذ هذه المقترحات ، ويكون من اختصاصه بحث ما يقدم إليه من المؤلفات التى يقوم بها علماء الأزهر وغيرهم فى العلوم الدينية والعربية وسائر العلوم التى تدرس فى الأزهر وكلياته ، وتقدير قيم هذه المؤلفات والعمل على نشر النافع منها ومكافأة أصحابها ، ليكون ذلك مدعاة إلى تنشيط الإنتاج العلمى

وتقترح اللجنة أن يكون هذا المكتب برياسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وعضوية عشرة من أعضاء الجماعة — ذكرتهم اللجنة فى تقريرها — على أن يستعين المكتب بمن يختار من علماء الأزهر وغيرهم

وقد اقترحت اللجنة على فضيلة الأستاذ الأكبر إلى جانب ذلك :

أولاً : أن تشرف جماعة كبار العلماء بواسطة لجنة منها على مجلة الأزهر ، ليكون ذلك وسيلة ناجحة إلى تنفيذ معظم هذه المقترحات ، وليكون ما ينشر فى المجلة التى يصدرها الأزهر متفقاً وما ينتظره العالم الإسلامى لهذه المجلة من علو المكانة ورفعة الشأن .

ثانياً : أن يعمل فضيلة الأستاذ الأكبر على تأليف لجنة يمثل فيها الأزهر ، ووزارة الأوقاف ، ووزارة الشئون الاجتماعية ، ومشيخة الطرق الصوفية ، تكون مهمتها وضع الخطط النافعة فى الوعظ والإرشاد واتخاذ ما يلزم لتعميم النفع به من إلقاء خطب أو إذاعات أو طبع رسائل توزع بالمجان على الناس ، وغير ذلك مما تراه نافعاً فى تقويم الخلق وإصلاح المجتمع

هذا هو ما رأته اللجنة فى شأن المقترحات وطرق تنفيذها ، وقد رفعت تقريرها بذلك — قبيل عيد الأضحى — إلى حضرة

سبقنا بالكتابة كل شعب ... ولسنا عن مواثقنا نحيد
وتعجبنى الروائع إذ أراها ... وصاحبها هو الخصم اللدود
بلادى ما أعزك يا بلادى ... أمالك عن مسالة محيد
أمالك مثل ما لهمو سفين ... ولا فى الجو أجنحة ترود
أرى الذهب الحبيب إلى أناس ... بغيضاً والحبيبُ هو الحديد
فليت جدودنا كانوا قيوناً ... فيحمى مُلكَنا ركن شديد
فَرِحتُ بقصة وببيت شعر ... ويحمينى المحالف والعقيد
وعندى ما أقول وعند غيرى ... ولكنى سكتُّ فما أزيد

عبد اللطيف النشار

صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر، ليتخذ ما يرى فى سبيل عرضه على الجماعة تمهيداً لإقراره وتنفيذه

وبهذا أصبح برنامج الإصلاح فى كفالة الأستاذ الأكبر المراغى رجل الإصلاح

إلى الأستاذ محمود عزت عرفة

عفا الله عنى نضو نُعمى وأبؤس　　تمتع حيناً ثم أضناه ما يضنى
لحنتُ وأنحلتُ امرأً غير شعره　　وحرَّفت ما أروى فويلىَ من سنى
وما كنت شيئاً من أولئك أتقى　　ولاخلتأن الشيب من صفة الجن
ويأبي وفائى أن أغالط محسناً　　أأهدَى إلى وجه الصواب ولاأثنى
فقل للوليد البحترى وصنوه　　حبيب بن أوس ماجنيت ولاأجنى
هما الخمر والماء الطهور وأنملى　　معودة مزج السلافة فى الدن
لك الحمــــد يا محمود من ذى مروءة　　يرى الشكر فرضاً والجحود من الجبن

عبد اللطيف النشار

بين صبرى وابن دريد

شهد الأديب الفاضل حسين محمود البشبيشى على الشاعر اسماعيل صبرى باشا بسرقة بيتىْ شعر وردا فى ديوانه، إذ رآهما فى مقال للشاعر محرم منسوبين إلى صاحب المقصورة الدريدية

والبيتان اللذان فى الديوان هما:

إن الذى أبقيتَ فى مهجتى　　يا متلف الصب ولم يشعر
حشاشة لو أنهـــا قطرة　　تجول فى عينيك لم تُنظر

وفى مقال الشاعر محرم وردا بتحريف بسيط فكانا هكذا:

إن الذى أبقيت فى (جسمه)　　يا متلف الصب ولم يشعر
(صُبابة) لو أنهـــا قطرة　　تجول جفنيك لم (تقطر)

قلت: إنها شهادة لعمر الحق جائرة. فما كان لشاعر كاسماعيل صبرى سما فى شاعريته البارعة إلى أعلى مراتب الشعر الغنائى أن يسف هذا الإسفاف الفاضح المعيب، فيعزو إلى نفسه قول غيره. ونحن إذا علمنا كيف جمعت مقطوعات الديوان من هنا وهناك بعد وفاة الشاعر بأعوام طويلة، ظهرت لنا براءته مما وصم به.

ففى كلمة الأستاذ أحمد الزين فى الديوان نرى أن صهر الشاعر صاحب العزة حسن رفعت بك قد حمل على عاتقه عبء جمع الديوان، وهو عبء يجهد لقلة ما كان الشاعر يعنى بجمع شعره وترتيبه. يقول الأستاذ أحمد الزين إن صهر الشاعر جمع مقطوعات الديوان من بطون الصحف التى بعد بها العهد، ومن أفواه الرواة المعاصرين له والمتصلين به فكان لا يسمع بإنسان جالس اسماعيل صبرى إلا زاره وكتب عنه ما يحفظه من شعره ـ أنظر الديوان صفحة ٤١ ـ ومن المرجح عندى فيما يختص بهذين البيتين أن يكون هناك مَن ضمه مجلس باسماعيل صبرى وسمعه ينشدهما فظنهما له ورواهما لصهر الشاعر على حسب هذا الظن. وهب أن البيتين وجدا مكتوبين بخط الشاعر فليس بعجيب أن يكتب الإنسان فى أوراقه شعراً أعجبه، ولكنه سهو تقع تبعته على الذين أشرفوا على جمع الديوان. وقل مثل ذلك فى الأبيات التى وردت فى وصف النيل على أنها لاسماعيل صبرى وهى لابن الحروف أبى الحسن الأشبيلى من شعراء القرن السادس. ومما يجعلنى أقطع فى براءة اسماعيل صبرى هو أن هاتين القطوعتين وردتا فى الديوان دون أن تشتملا على شهادة بنسبتهما إلى الشاعر كما نرى فى بقية أشعار الديوان

بقيت هنالك مسألة التحريف اللفظى، ولعل الأديب الفاضل يراها مما يقوى زعمه، إذ يعد هذا التحريف تغييراً من اسماعيل صبرى لكى يموه على الناس، ولكنه تغيير لم يوفق فيه، على رأى الأديب. والذى أراه أن هذا التغيير الذى لم يمس جوهر ذينك البيتين الرائعين ما هو إلا تحريف لفظى كثيراً ما يقع فى الشعر القديم. فبينما أنت تقرأ فى كتاب الأغانى مثلاً تراه بعينه فى كتاب آخر، ولكنه محرف ببعض الألفاظ، ومثل هذا كثير. فلعل الكتاب الذى وعى منه اسماعيل صبرى هذين البيتين هو غير الكتاب الذى أخذهما منه الشاعر محرم منسوبين إلى أبى بكر ابن دريد، ومن هنا حصل هذا التغيير الذى جعل الأديب حسين محمود البشبيشى يشهد هـذه الشهادة الجائرة على الشاعر رحمه الله

(نابلس)　　**فدوى عبد الفتاح طوقان**

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ٣ / ١٢ / ١٩٤١ فى القضية رقم ٧٣١ سنة ١٩٤١ ضد أنور يوسف عبد الفتاح تاجر بقالة بأبو حمص بالحبس خمسة عشر يوماً بالشغل والنفاذ والنشر على مصاريفه لبيعه كبريتاً بسعر أزيد من المحدد بالتسعيرة.



بدلة الأسير

للأستاذ نجيب محفوظ

كان « جحشة » بائع السجائر أول السابقين إلى محطة الزقازيق حين اقترب ميعاد قدوم القطار ؛ وكان يعد المحطة بحق سوقه النافقة ، فيمضى على الإفريز فى نشاط منقطع النظير يتصيد الزبائن بعينيه الصغيرتين الخبيرتين . ولعل « جحشة » لو سئل عن مهنته للعنها شر لعنة . لأنه كغالبية الناس برم بحياته ، ساخط على حظه . ولعله لو ملك حرية الاختيار لآثر أن يكون سائق سيارة أحد الأعيان ، فيرتدى لباس الأفندية ، ويأكل من طعام البك ، ويرافقه إلى الأماكن المختارة فى الصيف والشتاء ، مؤثراً من أعمال الكفاح فى سبيل القوت ما هو أدنى إلى التسلية والملهاة . على أنه كانت له أسبابه الخاصة ودواعيه الخفية لإيثار هذا العمل وتمنيه من يوم أن رأى الغر — سائق أحد الأعيان — يتعرض للفتاة نبوية خادم المأمور فى الطريق ويغازلها بجسارة وثقة ، بل سمعه مرة يقول لها وهو يفرك يديه حبوراً : « سآتى قريباً ومعى الخاتم » . ورأى الفتاة تبسم فى دلال وترفع طرف الملاءة عن رأسها كأنها تسويها ، والحقيقة أنها أرادت أن تبدى عن شعرها الفاحم المدهون بالزيت ... رأى ذلك فالتهب قلبه وأحس الغيرة تنهشه نهشاً موجعاً . وكان به من عينيها السوداوين أوجاع وأمراض . وكان يتبعها عن كثب ويقطع عليها السبيل فى الذهاب والإياب ، حتى إذا خلا بها فى عطفة أعاد على أذنيها ما قاله لها الغر : « سآتى قريباً ومعى الخاتم » ، ولكنها لوت عنه رأسها وقطبت جبينها وقالت له باحتقار : « هات لك قبقاب أحسن » . فنظر إلى قدميه الغليظتين كأنهما بطنا بخفى جمل ، وجلبابه القذر ، وطاقيته المعفرة وقال : « هذا سبب شقائى وأفول نجمى » . ونفس على « الغر » عمله وتمناه ... على أن آماله لم تقطعه عن مهنته ، فثابر على كده قانعاً من آماله بالأحلام . وقصد فى ذلك الأصيل إلى محطة الزقازيق يحمل صندوقه وينتظر القطار القادم .

ونظر إلى الأفق فرأى القطار قادماً من بعد كأنه سحابة دخان ، وما زال يدنو ويقترب وتتميز أجزاؤه ويتصاعد ضجيجه حتى وقف على إفريز المحطة . وهرع « جحشة » إلى العربات المتراصة ، فرأى ــ لدهشته ــ على الأبواب حراساً مسلحين ، ووجوهاً غريبة تطل من النوافذ بأعين ذاهلة منكسرة . وتساءل الخلق : فقيل لهم بأن هؤلاء أسرى الإيطاليين الذين تساقطوا بين أيدى عدوهم بغير حساب . وإنهم يساقون الآن إلى المعتقلات

فوقف «جحشة» متحيراً يقلب عينيه فى الوجوه المغبرة ؛ ثم أدركته الكآبة لأنه أيقن أن تلك الوجوه الشاحبة الغارقة فى البؤس والفقر لن يكون فى وسعها إشباع نهمها من سجائره ... ووجدهم يلتهمون صندوقه بشراهة وجوع فألقى عليهم نظرة سخط واحتقار وهمّ أن يوليهم ظهره ويعود من حيث أتى . ولكنه سمع صوتاً يصيح به بالعربية بلهجة أفرنجية قائلاً « سجائر » فخدجه بنظرة دهشة وريبة ثم فرك سبابته بإبهامه : أى نقود . ففهم الجندى وأومأ له برأسه فاقترب محاذراً ووقف على بعد لا تبلغه يد الجندى . فخلع الجندى جاكتته بهدوء وقال له وهو يلوح بها : « هذه نقودى » فتعجب جحشة وتفرس فى الجاكتة الرمادية ذات الأزرار الصفراء بين الدهشة والطمع . ووجب قلبه ، ولكنه لم يكن ساذجاً أو مغفلاً ، فأخفى ما قام بنفسه أن يقع فريسة جشع الإيطالى ، وأبرز فى هدوء ظاهرى علبة سجائر ، ومد يده ليأخذ الجاكتة . فقطب الجندى جبينه وصاح به « علبة واحدة بجاكتة ؟ ... هات عشرا » فذعر جحشة وتراجع إلى الوراء ، وقد غاض طمعه ، وأوشك أن يأخذ فى غير السبيل . فصاح به الجندى « أعطنى عدداً مناسباً ... تسعا ... أو ثمانيا » فهز الشاب رأسه بعناد . فقال الجندى : « إذاً سبعا ... » ولكنه هز رأسه كما فعل فى الأولى ، وتظاهر بأنه يعتزم المسير فقنع الجندي بست ثم هبط إلى خمس . فلوح جحشة بيده متظاهراً باليأس ، وتراجع إلى المقعد وجلس ، فصاح به الجندى المجنون : « تعال . . . رضيت بأربع ... » فلم يلق إليه بالاً ؛ وليدله على عدم اكتراثه أشعل سيجارة ومضى يدخن فى تلذذ وهدوء . فثارت ثائرة الجندي وأهاجه الغضب ، وبدا وكأن ليس له غاية فى الوجود سوى الاستيلاء على سجائر ، فهبط بطلبه إلى ثلاث ثم إلى اثنتين . ولبث جحشة جالساً يغالب اضطرام عواطفه وأوجاع طمعه ولما نزل الجندى إلى اثنتين أبدى حركة بغير إرادة رآها الجندى . فقال له وهو يمد يده بالجاكتة : « هات » فلم ير بداً من النهوض

الكتب

نظرة جـــــديدة

فى « أرواح شاردة »

بمناسبة طبعته الثانية

للأديب حسين محمود البشبيشى

ما ظنك بالروح الشاعر إذا تفتّح ليستوعب أسرار الوجود ، وتغلغل يتأمل ألوان الجمال ؟ وما ظنك بالفكر القادر إذا عقد النية على كشف منبهم الأمور ، والبحث وراء بوارق المعرفة والنور ؟ وما ظنك بالفن الساحر إذا تشوّف إلى الشوارد الفنية الباسمة ، وتتطلع إلى مباهج الحياة الفاتنة .

. . . ذلك فيض من « أرواح شاردة » ! !

وقع الكتاب فى يدى صدفة ، فتناولته بلهفة ... لست أدرى أكان مصدرها تجاوب الروح بينى وبين أرواحه الشاردة ، أم الرغبة فى الاطلاع على لون من الأدب جديد الطابع فريد المنزع

لست أدرى كل هـذا ؛ ولكن الذى أعلمه هو أنى حسن الظن - عن حق - بصاحبه الشاعر ، قوى الإيمان بروحه الساحر وشفافية وجدانه ، وتألق لفظه ، وعذوبة جرسه التى يخيل إلى المرء أنه ينسجها من قلبه نسجاً ، أو يسكبها من روحه سكباً

. . . وقرأت الكتاب فوجدتُ روح الفنان غالبةً على روح الشاعر ، وروح الشاعر طاغية على روح الكاتب . فهو فى كثير من الأحايين يعرض لدراسة شاعرٍ فى استقراء الكاتب المحقق ؛ ثم هو بعد ذلك يحاول أن يدفع عن الشعراء كل تهمة جائرة مجرّداً لذلك قلمه ساكباً فيه عصارة قلبه . . . ونظرة واحدة إلى دفاعه عن شارل بودلير تريك صدق ما أقول فقد جاء فى مقام تعليل انغماسه فى الشهوة العارمة ، وتلويثه للجمال

ودنا من القطار حتى أخذ الجاكتة ، وأعطى الجندى العلبتين . وتفرس الجاكتة بعين جذلة راضية ، وقد لاحت على شفتيه ابتسامة ظفر . ووضع الصندوق على المقعد وارتدى الجاكتة ، وزرها . فبدت فضفاضة ولكنه لم يعن بذلك وتاه عجباً وسروراً واسترد صندوقه . وأخذ يقطع الإفريز نخوراً طروباً . وارتسمت لعينيه صورة نبوية فى ملاءتها اللف فقال متمتماً : لو ترانى الآن ! نعم لن تتجافانى بعداليوم ولن تلوى وجهها عنى احتقاراً . ولن يجد الغر ما يفخر به على . ولكنه ذكر أن الغر يرتدى بذلة كاملة لا جاكتة مفردة فكيف السبيل إلى البنطلون . وفكر ملياً . وألقى على رؤوس الأسرى المطلة من نوافذ القطار نظرة ذات معنى . ولعب الطمع بقلبه من جديد فاضطربت نفسه بعد أن أوشكت أن تستقر . ودلف إلي القطار ونادى بجرأة : «سجائر . سجائر . العلبة ببنطلون لمن ليس معه نقود . العلبة ببنطلون» وأعاد نداءه مثنى وثلاثاً ، وخشى أن يغيب عن الأفهام مقصده فمضى يومئ إلى الجاكتة التى يرتديها ويلوح بعلبة سجائر . وأحدثت إيماءته الأثر المرجو فلم يتردد جندى أن يهم بخلع جاكتته ولكنه سارع نحوه وأومأ إليه أن يتمهل ، ثم أشار إلى بنطلونه يعنى أن ذلك بغيته ؛ وهز الجندى منكبيه باستهانة وخلع البنطلون وتم التبادل . وقبضت يد جحشة على البنطلون بقوة يكاد أن يطير من الفرح ، وتقهقر إلى مكانه الأول وأخذ يرتدى البنطلون وانتهى فى أقل من دقيقة فصار جندياً إيطالياً كاملاً ... ترى هل ينقصه شيء ؟ ... المؤسف حقاً أن هؤلاء الأسرى لا يغطون رؤوسهم بالطرابيش ... ولكنهم يضعون أقدامهم فى أحذية . . . ولا غنى عن حذاء ليتساوى بالغر الذى يكرب حياته . وحمل صندوقه وهرع إلى القطار وهو يصرخ « سجائر . . . العلبة بحذاء . . . العلبة بحذاء » . واستعان على التفاهم بالإشارة كما فعل فى المرة الأولى . ولكنه قبل أن يظفر بزبون جديد آذنت صفارة القطار بالمسير . فتمخضت عن موجة نشاط شملت الحراس جميعاً . وكانت سحائب الظلام تغشى جوانب المحطة ، وطائر الليل يحلق فى الفضاء ، فتوقف جحشة وفى نفسه لوعة ، وفى عينيه نظرة حسرة وغيظ . ولما أخذ القطار يتحرك لمحه حارس فى عربة أمامية فبدا على وجهه الغضب وصاح به بالإنجليزية ثم بالإيطالية « إصعد بسرعة . إصعد أيها الأسير » فلم يفهم جحشة ما يقول وأراد أن ينفس عن صدره فجعل يقلده فى حركاته مستهزئاً به مطمئناً إلى بعده عن متناول يده . فصاح به الحارس مرة أخرى والقطار يبتعد رويداً رويداً « إصعد ، إنى أحذرك ، اصعد » فزمّ جحشة شفتيه احتقاراً وولاه ظهره وهم بالمسير ؛ فكور الحارس قبضة يسراه مهدداً وصوب بندقيته نحو الشاب الغافل . . . وأطلق النار . ودوى عزيف الرصاصة يصم الآذان وأعقبتها صرخة ألم وفزع . وتصلب جسم جحشة فى مكانه فسقط الصندوق من يده ، وتناثرت علب السجائر والكبريت . ثم انقلب على وجهه جثة هامدة .

نجيب محفوظ

الأرضى « لقد كان بودلير فناناً صادقاً طموحاً محباً للجمال وعلى العكس مما يرى الكثيرون فإنه باندفاعه المحزن فى تلويث الجمال الأرضى ، وردّه كل أنثى إمرأة عاهرة، قد أفشى عاطفته المكرسة لعبادة الجمال المطلق » ... وهذا كلام بعثه قلبٌ شاعر يدفع عن قلب شاعر !

وجدت روحَ المؤلف حائرة بين مباهج الشعر ، ومفاتن النثر ، ولكن ميله الشعرى جعله يعرض لدراسة الشعراء أكثر من دراسة الكتاب

أفلم يعرض لنا بول فيرلين ويسايره أصدق مسايرة ، ويتابعه متابعة الشاعر يقدر عظمة الشاعر ؟

أو لم يقدم لنا بودلير فى فتنة شعره ، ويقظة وجدانه ، وتوهج شهوته ؟ ثم أكثر من ذلك إن روح الشعر فى نفس صاحبنا غلبت عليه فجعلته يترجم قبرة شلى ، وعودة الملاح لجون ماسفيلد ، وأغنية القطيع ، وبيت الراعى ، ثم يشرق علينا بنفحة شعرية هى قصيدته فى باريس

لو أستطيع أن أقول إنه حتى فيما كتب عن ذكرياته فى آخر الكتاب كان شاعراً فى كثير من الأحايين

وليس بغريب أن يختار هؤلاء الشعراء موضوعاً لبحثه ، فبين نظرتهم الفنية النفسية إلى الحياة وبين نظرة صلات ووشائج يدركها الناقد الفطن !

ولا يسعنا إلا أن نقول إنه فى اختياره لقصائد القبرة وعودة الملاح، وبيت الراعى ، كان منسجماً مع اتجاهات نفسه وأحاسيسه ، ولكنى أعتقد أن شعوره نحو هذه القصائد يختلف قوة وضعفاً ؛ وتبعاً لذلك تتفاوت القصائد

ولا يسعنى إلا أن أرفع القبرة إلى مستوى قدرة شاعرنا نفسه التى لمسناها حية متألقة بسامة فى « الجندول » ، وفى قصيدته الخالدة « موت شاعر » ، ولعل هذه القصيدة الأخيرة كانت أول عهدى بالملاح التائه ، ثم قصيدته فى ميلاد الشاعر التى نشرتها مجلة أبولو عقب وفاة شوقى

ونعود فنذكر رنة مطلعها ، وحسن اختيار بحرها ، وعذوبة قافيتها وشاعرنا يجيد الاستهلال . أنظر إلى روعة المطلع :

يا أيها الروح يهفو حوله الفرح   تحية أيهذا الصادح المرحُ !
عن أمة الطير هذا اللحن ما سمعتْ
بمثله الأرض ، لا روض ولا صَدَحُ
أنت الذى من سماء الروح منهله   خمرٌ إلهيةٌ لم تحوها قدحُ
يفيض قلبك ألحاناً يسلسلها   فن طليق من الوجدان منسرح

ولكم أطربنى ، وهاج خواطرى ، وحلق بى فى جو من الخيال الباسم الوضىء قدرته على صوغ هذه المعانى السامية إذ يقول :

إنا نفكر فى ماضٍ بلا أثرٍ   ومُقبلٍ من حياة كلها غيب !
ومستحيل نُرجّى برقَ ديمته   وكل ما نرتجيه منه مختلب
وكم لنا ضحكاتٌ غير صادقة   مالم يشب صفوها التبريح والوصب
وإن أشهى الأغانى فى مسامعنا   ما سال وهو حزين اللحن مكتئب!

وهنا وقفة يجب أن يقفها الثائرون على النغم الحزين فى أغانينا ؛ فهذا شلى الشاعر العالمى ينطق بلسان الفلسفة التى لا وطن لها . إن اللحن الحزين هو أشهى ما تسمع الإنسانية الحساسة الشفافة التى ترقب الزهر الوليد بنفس العين التى تودع الزهر الذابل

أما قصيدة عودة الملاح فلعله ترجمها بدافع تجانس الميول ، وتقارب الأحاسيس ؛ فقد كان شاعرنا ملاحاً تائهاً ! فهو كما يظهر يحب البحر ، أو فى طبيعته الزخارة بالوجدانات شىء من طبيعة البحر ؛ وإلا فلم ترجم عودة الملاح ؟ الجواب ينطق به مطلعها :

يا فرحتى للبحر أرجعُ ثانياً   متفرّداً بعبابه وسمائه
أقصى مناىَ سفينة ممشوقة   وبزوغ نجم أهتدى بضيائه

بعد أن بينت الدوافع إلى ترجمته لهؤلاء الشعراء، ولتلك القصائد أدع الكاتب نفسه يعبر عن سبب ترجمته لقصيدة « بيت الراعى » فيقول : « لأنها ذات موضوع طريف حافل ، يتكلم فيه الشاعر بدقة ورقة وصراحة وعظمة عن القلب والروح والجسد وشقاء النفس الشاعرة بهذا العالم الجارح ومدنيته الجافية القاسية »

وهذا يصدق قولى فى أن الشاعر اختار ما جانس أحاسيسه ولابس وجدانه .

ونتكلم عن ذكريات مرت بقلبه ، وعطرت بأريجها ألفاف روحه ، وتغلغلت فى أحاسيسه ، فخلّدها ... !

وإنك لتلمح فى ليلته الأولى وحشة الغريب ولهفة المشتاق ؛ وترى فى ميدان إسدرا سحر الألحان وروح الفنان ، وتحس فى يوم فرساى نشوة الطرب وروعة الجمال ، وتنسم من فتاة برن عبير الروح وعبق القلب ... ثم ترى فى قصيدة باريس دمعة الفنان وثورة الوجدان !

تلك هى ذكريات صاحب الجندول التى خضع فيها — كما سأبين — الروح الشاعرية ، والنزعة الشرقية ، والثقافة الأوروبية ، ثم فى كثير من الأحايين لطريقة أستاذنا الزيات

فكيف كان ذلك ؟ !

أما خضوعه للشاعرية فأمر محتوم ، وما كان له أن يتخلص من قيودها الحبيبة الباسمة ، بل إنها لتظهر فى كثير من اللفتات الرائعة فى ألفاف ذكرياته . فهو مقيد بروح الشعر وخاصة عند الحديث عن الجمال والفن بل وكل ما يتصل بالجمال والفن ؛ فإن خياله ليصف الحسناء فيقول فى معنى شعرى ساحر : كأنها طفلة إلهية هبطت لأول مرة عالم الأرض ؛ ويطيب لروحه الشاعر أن يتبعها بسجع حلو رقيق فاتن ... ولعل شاعرنا قد تأثر قليلاً بطريقة أستاذنا الزيات فى الصناعة القوية العذبة

وهو شاعر تنساب حياته انسياب خاطره الدافق ، وتجرى جريان خياله المتألق فى سهولة ووضاءة وسلام ، ولكن الأقدار تأبى « إلا أن تضع فى طريقه حادثاً غريباً وشاغلاً عجيباً » ، وفى حديثه عن فتيات باريس « وفى عيونهن من أسرار الليل الذاهب ألق ، وفى شعورهن من خمر المساء الغابر عبق » ، وهو يحلو له أن يعبر عن حيرة وجدانه بسجعة رنانة تحمل من الشاعرية روح الحيوية، وتحمل من الفن حلاوة الجرس، فيخيل له أنه مطارد « يلاحقه خوف أو يتأثره حتف »

وحين يقول : « وبدأت إنشادها بصوت يتأوج صحواً ، ويتفجر شباباً ، ويترسل صفاء وعذوبة وسحراً ، وانفعلت هى بغنائها ، فاستحالت طيفاً راقصاً نابضاً باهتزازات هذه الأنغام المنطلقة فى سكون الليل تودع السلام والحب والرحمة فى قلب العالم! »

تلك هى ناحية الشاعرية فى نثر الكاتب جلّينا عنها فى إيجاز ؛ أما ناحية تأثره بالأدب الغربى فظاهرة فى كثير من اللفتات ، فهو يجعل للضوء أنابيب زئبقية ! وللأضواء العاكسة دهاليز من أشعة الشمس تعرق من خلال الغمام الأبيض، بل أنه ليغرق فى الروح الغربية ، حين يجعل الهواء يرفع معطف فتاته الحريرى الأبيض الهفهاف إلى ما فوق ذراعيها ، فكأنها ملك السحاب يضرب بجناحيه الناصعين فى الزرقة الصافية متقدماً رعيلاً من الغمام الأبيض !

بقيت ناحية حبه للشرق والوطن ، فهو يهتاج عند ما يرى جثة الرسول مرقص فيقف خطيباً فى صحبه ويقول : « هذا الرسول الذى ضن البنادقة على مصر بجثته » ثم هو لا يسأم من ذكر مصر ولو عارض فتاة القلب وقطع عليها حديثها عند ما قالت :

وهناك بلاد غير بعيدة عن روما وأثينا . . . وعنها أخذ العالم أرفع الفنون ... فيهتف : بل لا يزال يأخذ عنها !

وكم هزنى منه هذه اللفتة الحية النابضة بالوطنية عند ما قرن الصحراء والبحيرات الأفريقية والنيل المقدس ببحيرات سويسرا وإيطاليا ومساقط الماء فى جبال إنسبرول ...

ثم هو يهتاج لرؤيته الشباب الأوربى يتألق قوتوهو يسعى للقتال، وقد وقفت الفتيات ينثرن الابتسمات على جباه الشباب البسل . فيتمنى لو يقدر الله له أن يرى مثل هذا النظر فى مصر وطنه الحبيب

ولعل أطرف ما قابلنى من غيرته الوطنية دفاعه العجيب الفلسفى عن الفن المصرى وخلوه من الفن العارى ! ! فيقول معللاً ذلك بأن الحياة فى مصر سهلة ، والسماء صافية ، وكل شىء يفصح فى غير إبهام . . . وأن هذا الصفاء والإفصاح بعثت فى النفس الرغبة فى التستر . . . وهكذا يخلق شاعرنا من موضع النقص فى فننا موضعاً للتأمل الفلسفى ... فتأمل !

أما قصيدة باريس الراقصة المعانى الرنانة الجرس . فحسب مطلعها روعة

سألونى عن بيانى وقصيدى   أسفا باريس قد مات نشيدى !

ولكن كيف يموت النشيد الذى يقول :

صرع النور به وانحسرت   جبهة الشمس عن النور الشهيد

بل كيف يموت النشيد الذى يقول :

وابعثيها ثورة أخرى فما   يعرف الأحرار معنى للجمود

وبعد هذا هو الروح الشاعر والفكر القادر والفن الباهر ففيض من أرواح شاردة .

حسين محمود البشبيشى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)